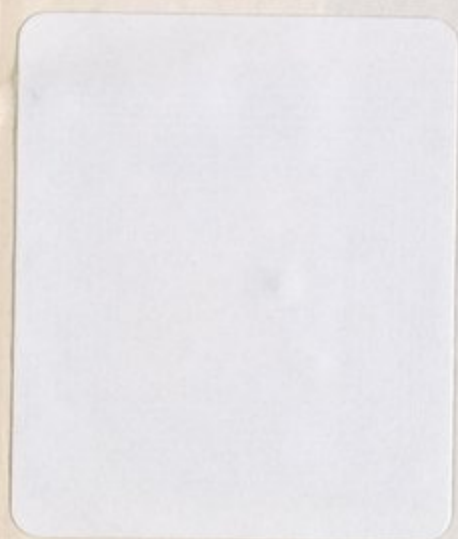
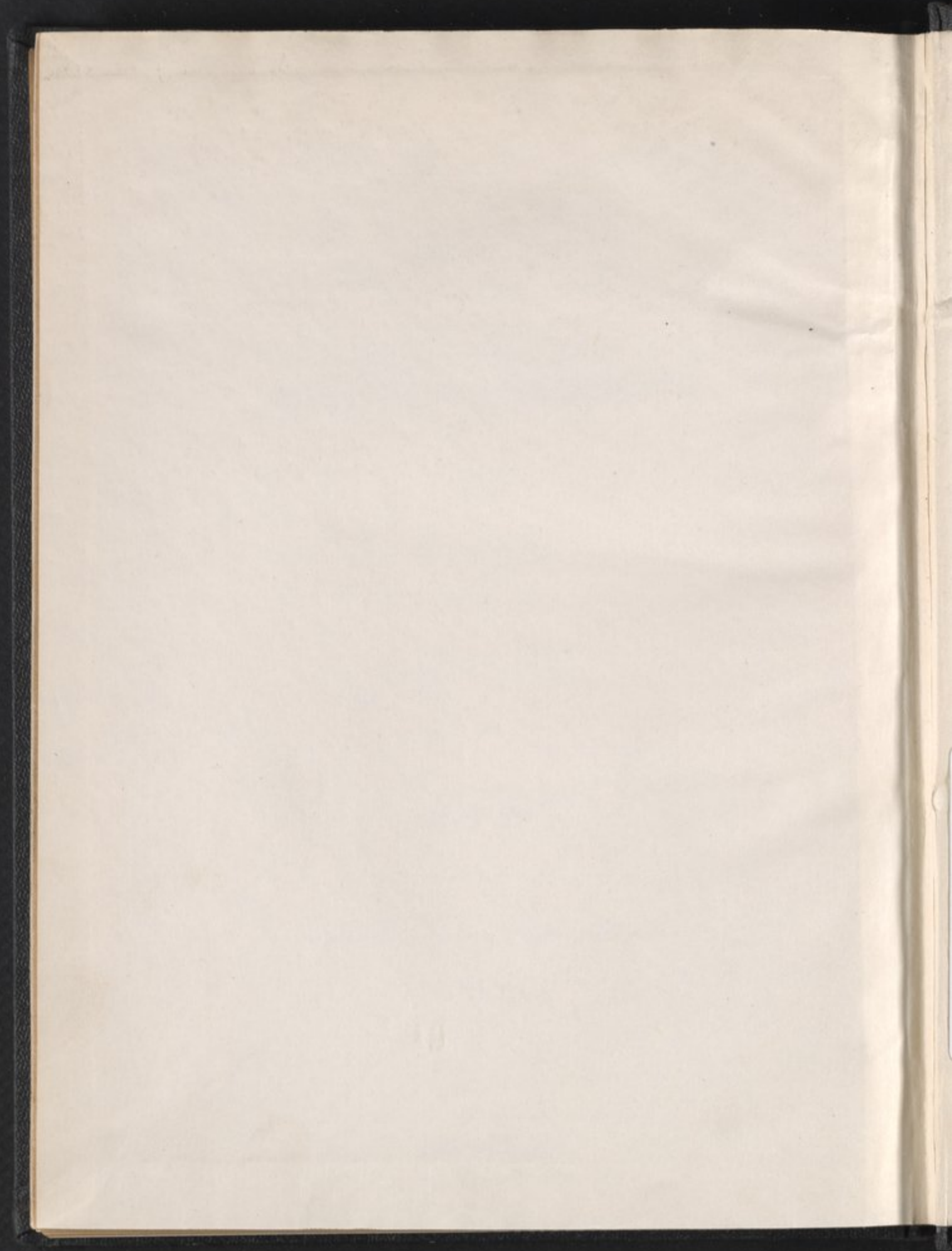


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01043 9747





IO: d-64042

11-7

السير السيرة

مِنْ شَأْنِهَا الدُّعَايَةُ وَمِنْ شَأْنِهَا السَّجْدَةُ

تأليف

الدكتور أمير بقطر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

أصدره قسم التربية بالجامعة الأميركية بالقاهرة

يوليو ١٩٤١

الطبعة العشرة

لصاحبها الياس انطون الياس

HN
543
B5X
1941

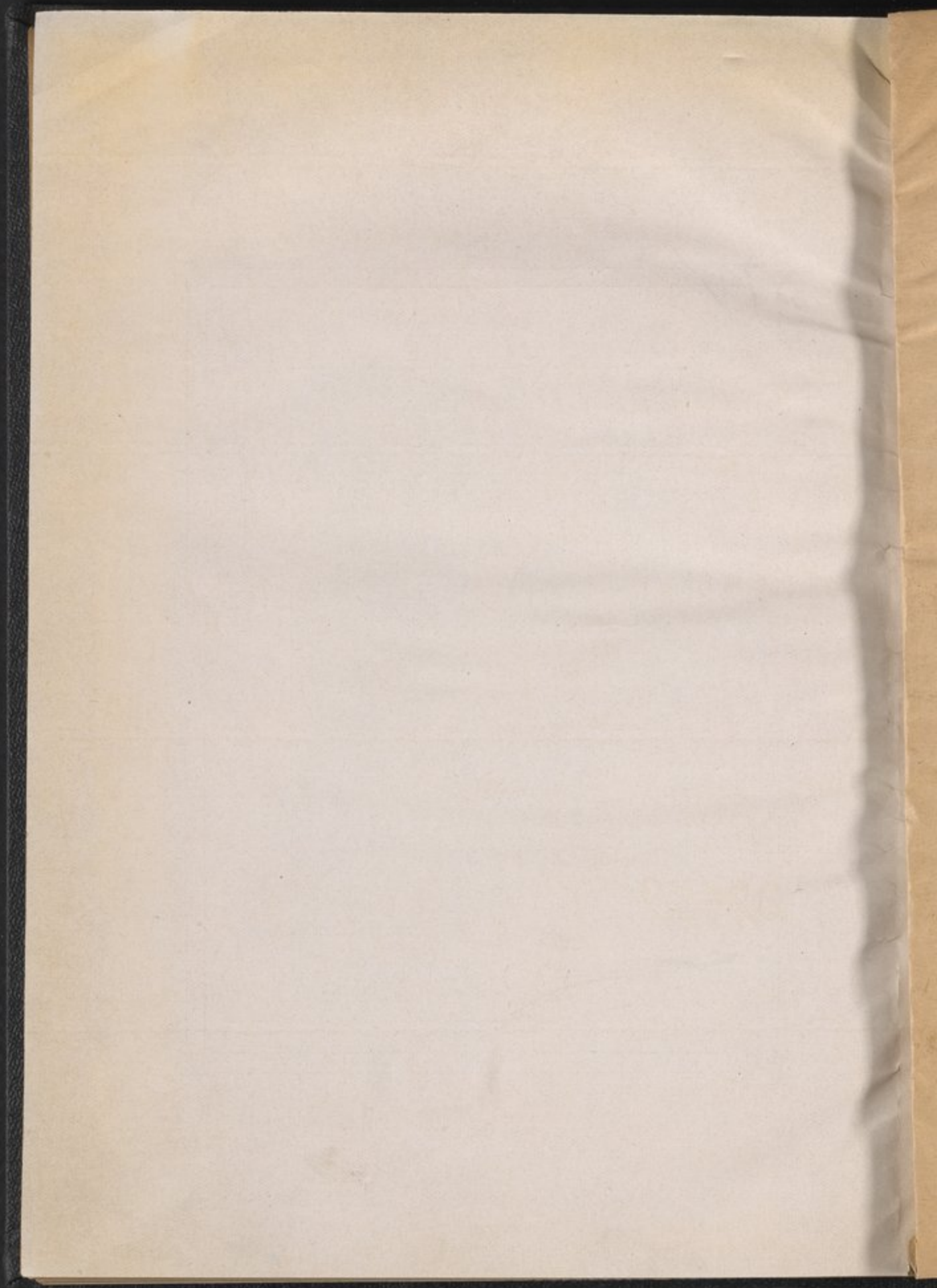
374.8

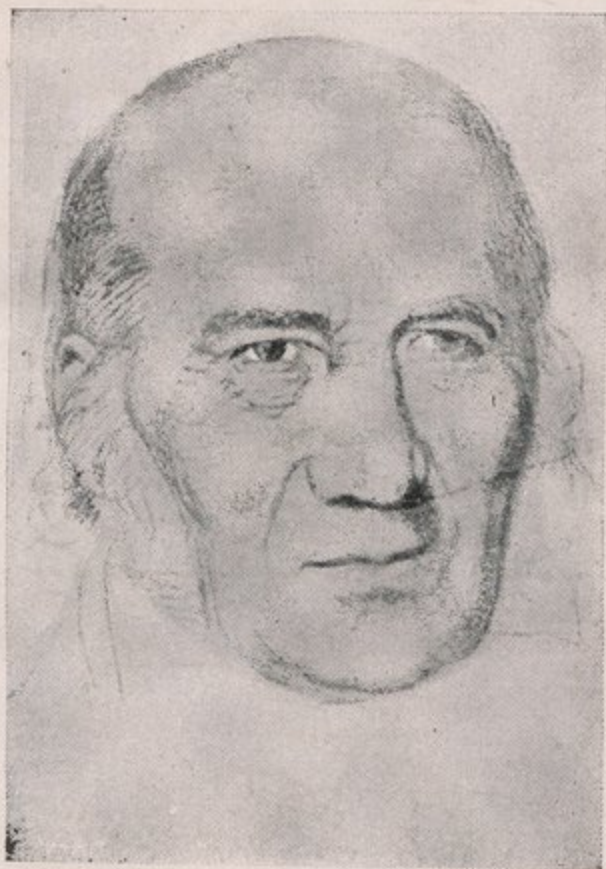
B63 d

YVZ, A

2.10.

22450





الزعيم الاجتماعي جرتوج (١٧٨٣ - ١٨٧٢)

مقدمة الكتاب

وضعت هذا الكتاب الصغير قبيل نشوب الحرب الحاضرة
بأسابيع ، وكنت قد دونت مذكراته في الدانيمركه ، وكتبت فصولاً منه
في همبرج بألمانيا ، وأخرى في فرساي ، وأتيت على آخره في نيس وكان ،
من مدن الريفيرا ، وما كدت أطوى الصفحات الأخيرة منه ، حتى دوت
أنباء الحرب في أرجاء ذلك المصيف الجميل ، ففرع سكان الشط اللازوردى ،
واكتظت القطارات المؤدية الى مرسيليا وغيرها من الثغور ، وازدحمت
الباخرة « محمد على الكبير » بالعائدين الى ارض الكنانة ، وعلى ظهرها
سطرت خاتمة هذا الكتاب ، والا ذاعة الاسلحية تحمل للمسافرين
أنباء القتال ، فيقف حول جهازها الرجال والنساء زرافات ، كأنَّ على
رءوسهم الطير .

والآن وقد تحطمت فرساي ، ونكس الشط اللازوردى أعلامه ،
وابتلع النسر الالماني الدانيمركه الجميلة ، وضم اليه « محمد على الكبير » ،
وأبى ربانها الباسل إلا أن يدفن معها حياً — الآن وقد أخذت الحوادث
بتلايب الحوادث ، أضع أمام القراء هذا الكتاب راجياً أن يؤدي الغرض
الذى كتب من اجله

على أن الكتاب ليس وصفاً لسياحة سائح ، فوالله لم يخطر ببالى
يوماً أن اكتب كسائح . واصفاً محدثاً فحسب ، فقد أتيح لى زيارة اسكندناوه

مرات ، ولم أشر مرة الى زوج واسوج والدانيمرك ، أو الى فنلندا وأستونيا ، إلاّ استشهادهما في بحث اجتماعي أو علمي . وقد رحلت مرة مع زمرة من الطلبة الأميركيين والأوروبيين على باخرة خاصة ، أقلتنا الى همرفست في الشمال القاصي ، لمشاهدة غروب الشمس في منتصف الليل هناك . فشاقني ما رأيت ودونت في مذكراتي الخاصة عنها مادونت ، ولكني لم أصفه لقاريء ، وقلنا تحدثت عنه لصديق . وقد أتيح لي بعدها زيارة كندا وولايات اميركا المتحدة ، وكل مملكة صغيرة وكبيرة في أوروبا (عدا روسيا) مرات ، ولكني لم أكتب عن إحداها يوماً كسائح ، ولم اصف معالمها لذاتها ، ولم ارسم للقاريء صورة لجبالها الشامخة وأنهارها المنسابة من قم الجبال في بطون الوديان ، أو عدا ذلك مما يصف السائح عادة . غاية ما في الامر انني أشرت الى هذه ، الفينة بعد الفينة في خلال بحث علمي ، أو في طيات حديث اجتماعي

إن جلّ ما نرمي إليه من نشر هذا الكتاب هو عمل رسم كروكي لبلد زراعي صغير ، استطاع بمدارسه الشعبية ، ومنشآته الاقتصادية والاجتماعية ، وذكاء شعبه وقوة أخلاقه ، أن يخرج للعالم نموذجاً بديعاً لحياة جميلة هادئة ، اجتمعت فيها الطمأنينة ، وطيب الإقامة والذوق السليم ، مع بساطة العيش ، ومتانة الخلق . ورغم ما بين مصر والدانيمرك من بعد الشقة ، واختلاف المناخ ، وتباين السلالة والطباع والامزجة ، فإن هناك دروساً في متناول بلد زراعي كمصر ، ان يتعلمها من بلد زراعي كالدانيمرك ، وإن هناك دروساً في متناول بلد فقير في منشآته الاجتماعية والاقتصادية

كمصر ، ان يتعلمها من بلدٍ كان الى عهد غير بعيد ، فقيراً — في منشأته
الاجتماعية والاقتصادية كالداينمرك

* * *

ومن البلدان التي يزورها المرء ، من تُعَفَّى معالمها بعد زيارتها بأيام ،
ومنها ما تبقى ذكرياتها مخلّدة في الازهان لا تمحوها الايد الموت . وليست
الداينمرك كإيطاليا مثلاً ، تستهوى مناظرها وتحفها الزائر ، ويغويه جمال
الطبيعة ، فيندفع بالعاطفة الى المبالغة في الوصف ، وليس أهلها كأهل الأمم
اللاتينية ، يسهل الامتزاج بهم ورفع الكلفة بينهم ، فيغري الكاتب مزاجهم
وحلاوة عشرتهم ، فيقول أكثر مما يخلق به أن يقول . على النقيض من ذلك
تجد الداينمرك وبلاد اسكندناوة عامة ، يستوحش فيها الغريب استيحاشاً ،
وقلما يتسنى له أن يستميل القلوب اليه أو يستدنيها ، او يفتح باب المحادثة
والسمر ، الا بشقّ النفس . بيد أن في بعض تلك البلدان الجافية ، الباردة ،
التي تكاد تعدم فيها العاطفة الانسانية في الظاهر ، من صفات الوداعة
والهدوء ونبيل العاطفة ، ما يجعل الغريب يضمّر لها من الوجد والهوى ، رغم
انفه ، فوق ما تضمّر أفئدة العاشقين ونوازعهم . وما الحياة الكاملة حقيقة
إلا تلك الخفقات التي يحققها الفؤاد كما رأى — في الافق مثلاً أعلى ، ينفذ
شعاعه المتوهج في الاعماق ، لا فرق بين أن يكون ذلك المثل من صنع
الطبيعة أو من صنع الانسان

ولعلّ أبرز الصفات التي تركت في نفسي أعمق الأثر في الداينمارك ،
والبلدان الاسكندناوية عامة ، هي صفات العمق ، والهدوء ، وبُعد الغور .

فقلّما تجد رجلاً مستفزاً أو مهتاجاً ، إذا ما استفزّه أحد ، وقلّما تجده مسترسلاً مستفيضاً إذا ما طلب إليه الحديث ، وقلّما تجده طعّاناً أو هجّاناً ، وإن كان ثمة ما يبرّر الطعن والهجاء ، وقلّما تجده يفتح عينيه في مخلوق أو يحملق في حسناء في الطريق ، وإن كان في ذلك المخلوق أو تلك الحسناء ما يستدعي ذلك المسلك . وقبيل كتابة هذه السطور قرأت في مجلة أميركية وصفاً لكاتب قال في سياق الحديث فأجاد « ولم يكن جمال هذه الحسناء ذلك الجمال الصارخ الذي يصفر لصاحبتة الايطالي . ولكنه ذلك الجمال الوقور الذي يعبدّه الناس عبادة ، ولا يسع أحد حتى الشاب الاسكندناوى ، إلا أن يلتفت إلى مصدره »

ومن البلدان التي شاهدناها ما تكشّفت فيها الوجوه ، وخفّ فيها موقع البذاء على الأسماع ، أما في بلدان الشمال فقد شاهدنا الناس وكأنّ بهم يشفّ فيهم الفهم عن القلب شفاف الكأس البلورى عن الشراب الصافى ولو أتيت لي ، لغصتُ على المعانى الإنسانية في ذلك السكون الرهيب ، ولتغلغلت إلى أعماق الوجدان في ذلك الهدوء البديع . فمدن الدنيمركه لا تتجرد عن الاخطاء الاجتماعية التي تجدها عادة في اشتات الأحياء وأخلافها ، غير أننا لا نجد فيها تلك القرارات التي تنصب فيها قاذورات المدن . فهناك فقراء ولكن على وجوههم سماه الشبع ، والأمل ، والرجاء . وهناك فلاحون ولكن تتلأأ وجوههم بنور العز والكرامة ، وتسيل على أعطافهم مخايل النعمة والرفاهية وسلامة الذوق . فلا أثر لذلك الفقر الذى يحول بين الجفون وغمضها ، والجنوب ومضاجعها . ومما يجدر

بالمهمنين على شئون التعليم العناية به، تلك الأعجوبة هي المدارس الشعبية، التي وثبتت بالبلاد في ميدان الاجتماع وثبة، هي دليل قاطع على ما تستطيع المدرسة إتيانه من المعجزات، طالما كانت مشادة على أساس متين.

ولست أدري كيف يعيش الدنيمركيون اليوم بعد أن اجتاحت ألمانيا بلادهم، فلم تبق فيها على شيء من الخيرات والنعم، التي يراها القاريء مفصلة في جوانب الكتاب، ولست أدري كيف يحس الآن شعب آثر حمرة الصهباء على حمرة الدماء، بعد أن أصبحت بلاده وإذا هي بين سفاكي الدماء. ولست أدري أانتقلت البلاد من عهد الإيمان واليقين إلى عهد الخيرة والشكوك، ومن عصر الاستقرار والأمل والرجاء، إلى عصر القلق والخيبة والخسران، غير إنني موقن أن أمة اتصف أهلها بذلك الخلق المتين، وذياك الذكاء المفرط، وتلك العزيمة التي لا تقل - أمة هذه صفاتها لن تذلل ولن تموت.

وأنني في ختام هذه الكلمة أقدم شكري الخالص لوزارة المعارف العمومية الدانيمركية، التي مهدت لي في صيف سنة ١٩٣٩ كل سبيل للتعرف على منشآت البلاد الاجتماعية، والوقوف على نظام مدارسها الشعبية، وتوفير الزيارات المختلفة لعدد يذكر من تلك المدارس. كما أنني أشكر بوجه خاص البرفسور كرستياتسن مدير مدرسة هليرويد الشعبية، والبروفسور بيتر منيش^(١) مدير الكلية الشعبية الدولية، وقد سمح لي بنشر صور هذا الكتاب

الفصل الأول

كلمة اجمالية

الدانيمركه من أصغر بلدان أوروبا ، إذ يبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين و ٨٠٠ ألف نفس ومساحتها ١٧ ألفاً و ٢٠٠ ميل مربع ، تشغل ثلاثة أخماسها شبه جزيرة جوتلاند ، وتوزع البقية بين مئة جزيرة وعشر جزر . وتمتاز بخصب أرضها وجمال مناظرها وكثرة بحيراتها ونهيراتها وتلالها ووديانها ، وما يتخللها من نبات وأشجار ، خصوصاً اشجار الزان . وهى بلاد زراعية قبل كل شيء ولكنها تختلف عن سائر البلدان الزراعية بتوزيع الثروة فيها توزيعاً يدعو للاعجاب . وحسبنا أن نعلم أنها على صغرها تشمل ٢٠٦ ألف مزرعة ، يملكها ٢٠٦ ألف مزارع . وتتخلل مزارعها وحقولها قلاع وحصون وقصور قديمة يرجع عهدها للقرون الوسطى ، ويمتاز فيها بجمال العمارة ونخامة البناء . وتزين شواطئها البالغ طولها ٢٥٠٠ ميل ، أكوام الرمال البيضاء المتحركة (dunes) . وتفوق فى جمالها من الناحية الغربية نظائرهما فى سائر البلدان الواقعة على بحر الشمال . أما الناحية الشرقية فتمتاز بكثرة تعاريجها وتجاويفها ، وما يتخلل أغوارها من المياه التى تحترق هذه التجاويف إلى أمد بعيد فتكون رقارقها (fords) الشهيرة

وتوجد معظم جزر دانيمركه بين ملتقى البلطيق بالسكاتيجات حيث يهدأ البحر وتخفت الأمواج . ويمتاز المساء بالصفاء والسكون ، فتطمئن

المزارع والحقول والمروج والغابات ، ويجرؤ قحها وشعيرها وخضرتها
وأشجارها على النمو والإيغال نحو الشاطئ حتى تكاد ترعرع في الماء وتزهو .
وقلما يوجد في العالم بلد زراعي بلغت أرضه من الخصب ، وبلغ من
التنظيم والتنسيق وعلو المستوى ، كدنيمرة . ففضلا عن أنها تكفي سكانها
ما يستهلكونه من الغلال ومستخرجات الألبان وسائر المحاصيل الزراعية ،
فإنها تصدر للخارج من هذه المحاصيل ما يتجاوز ثمنه ١١٦٥ مليون كرون
في العام أو ٥١ مليوناً و ٢٦٠ ألف جنيه . مع العلم إنها كما قلنا بلد صغير ،
وأن سكانها يعلو عندهم مستوى العيش علواً تحسدها عليها أكبر الديمقراطيات
وأكثرها ثروة . ومعنى هذا أن صادراتها الزراعية تبلغ نحو ١٥٠ ألف
جنيه في اليوم الواحد أي ثلاثة أرباع جميع صادراتها

ولما كنا نعتقد أن الأرقام المستقاة من مصادرها الرسمية من أزم
ما يحتاج إليه القارئ لتفهم حالة البلد الاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، فأنا
نضع أمامه هذه الحقائق حتى يرجع إليها القارئ عند الحاجة :-

قلنا أن مجموع السكان ٣ ملايين و ٨٠٠ ألف موزعة كالآتي : في
كوبنهاجن عاصمتها ٩٠٠ ألف ، وفي سائر مدنها ٩٠٠ ألف ، وفي الريف
مليوناً ونصف وتوزع مزارعها البالغ قدرها نحو ٢٠٦ ألف كما قلنا كالآتي :
١١٠ ألف مزرعة تزيد المزرعة الواحدة فيها عن ١٠ هكتار (الهكتار
يساوي عشرة آلاف متر مربع ٢٤ من الفدادين) ، و ٩١ ألف مزرعة
من ١٠ - ٦٠ هكتاراً ، و ٩٥٥ مزرعة من ٦٠ - ٢٤٠ هكتار ٤١٩
مزرعة فوق ٢٤٠ هكتاراً .

ويوجد بها من الخيول نصف مليون ، ومن الماشية $3\frac{1}{2}$ مليون ، ومن الأغنام ٢٠٠ ألف رأس ، ومن الخنازير ٥ ملايين ، ومن الدجاج ٢٢ مليون أما متوسط درجة الحرارة صيفاً فبلغ ١٥ درجة بميزان سنتغراد ، و $7\frac{1}{2}$ درجة للعام كله ، ومتوسط سقوط المطر ٧٢٨ مليمتراً

ويوجد بها ١٤٠ ألف سيارة (وهي أكبر عدد بالنسبة لعدد السكان في أوربا) وعدد المشتركين في التليفون ٣٥٠ ألفاً (عدد السيارات في القطر المصرى ٣٣٦٨٢^(١) وعدد التليفونات ٧١٠٥٣٦^(٢))

والدانيمركيون كسائر بلدان اسكندنافيا (نرويج واسوج) أصحاب الأبدان ، طوال القامة ، شقر ، ذهبىو الشعر ، زرق العيون ، تبلغ قامة الفرد منهم فى المتوسط ١٦٩ر٦ سنتيمتراً ، وأطول السكان قاطبة مليكهم الحالى كريستيان العاشر ، أما متوسط الأعمار فيكاد يكون أعلى رقم فى العالم إذ يبلغ ٦١ سنة . وتبلغ عدد المستشفيات ١٧٥ ، وعدد الأسر ٧١٦ر١٥ ، أى أن البلاد كاملة الاستعداد لجميع المرضى ، الأغنياء والفقراء منهم على السواء . أما عدد الأطباء فيبلغ ٢٥٣٦ر٢ ، وأطباء الاسنان ٧٩٠ ، والبيطريين ٩٤٢ . وسنتكلم عن الحالة التعليمية بتفصيل غير أننا نقول بادية ذى بدىء أن الأميين فيها صفر فى المئة . وإن التعليم الإلزامى يرجع عهده إلى آخر القرن الثامن عشر . وحسبنا أن نعلم أن عدد المكتبات العامة ٧٨٩ ، وأن الكتب التى تستعار فى الخارج تبلغ ثمانية ملايين ، وقد شاهدنا فى زيارتنا ، العديدة لبيوت الفلاحين والعمال ظاهرة غريبة قلما توجد فى بلد أوربى

آخر ، وهى كثرة الكتب ونوعها ومستواها ومبلغ استعمالها بين افقر الطبقات . أقول الفقراء واستدرك ، إذ أن الفقر يكاد يكون معدوماً فى دانميركه ، وكذلك الغنى والجاه ، إذ قد بلغت الديموقراطية هناك حداً ، انقرضت معه الاستقرابية وانقرض معها العدم . وكاد الناس يتساوون فى مستوى العيش ، حتى أننا لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا بإيجاز أن جميع السكان من الطبقة المتوسطة كما تفهمها أغنى بلدان العالم ، وأن جميع السكان كان لهم حظ وافر من التعليم الثانوى على الأقل ، كما سنرى فيما بعد وهى كما قلنا بلاد ديموقراطية ، وحكومتها دستورية ، ملكية مقيدة ، ويعتقد أهلها أنهم أقدم حكومة ملكية فى أوروبا . والسلطة التشريعية بيد الملك والبرلمان (Ridsdag) ، ويكون من مجلس النواب (Folketing) ومجلس الشيوخ (Landsting) . ويتألف الأول من ١٤٩ عضواً منهم ٦٨ اشتراكيون ، ٢٩ أحرار ، ٢٧ محافظون ، و ١٤ راديكاليون ، والبقية من أحزاب أخرى . والوزارة الحاضرة اشتراكية يعاونها الراديكال ، أما مجلس الشيوخ فيتألف من ٧٦ عضواً

وليس للحكومة دين رسمى ، إلا أن السكان بروتستانت المذهب من اتباع لوثيروس ، فيما عدا أقلية من ٣٥ ألف كاثوليكي وهـ آلاف اسرائيلي ورغم أن البلاد زراعية قبل كل شىء ، إذ أن مليوناً من الانفس أو أكثر من ربع السكان يعيشون من الزراعة ، وأن جميع الدانيمركيين ينحدرون من سلالات زراعية ، رغم ذلك تنبئنا آخر احصائية (١٩٣٧) أن ٨٠ ألفاً يعيشون من الغابات والبساتين وصيد الاسماك ، ومليوناً يعيشون من

الفنون والصناعات ، و ٣٨٠ ألفاً من التجارة ، و ٢٥٠ ألفاً من وسائل النقل
وقبل أن تنتقل إلى موضوع آخر لا يفوتني أن أشير هنا إلى ظاهرة
غريبة بخصوص وسائل النقل ، وهي ان للبواخر فيها شأنًا يذكر ، إذ أنه
فيما خلا شبه جزيرة جوتلندا الواقعة في الشمال ، فإن جنوبي دانيمرك
يتألف من ٥٠٠ جزيرة - مئة منها مأهول بالسكان . ويدعو هذا العدد
الكبير من الجزر إلى الجمع بين البر والبحر في الانتقال من مكان إلى آخر ،
وقدما يسافر المرء من بلدة إلى بلدة مدى خمس أو ست ساعات حتى يجد
القطار الذي يقله ، ينتقل فجأة بمسافريه وامتعتهم من اليابسة إلى البحر ،
وذلك ان القضبان التي يجري عليها تمتد إلى باخرة كبيرة في الماء ، تمخر
عباب ذلك البحر وتواصل السير حتى تصل إلى الشاطئ ، وهناك يتحرك
القطار مرة أخرى ويستأنف السير على اليابسة .

وقد شاهدت هذه الظاهرة في معظم الأسفار التي قمت بها في تلك
البلاد . وفي كل دفعة كنت أشاهد قطاراً آخر حديديا غير القطار الذي
كنت به ، ينتقل أيضاً من البر الى الباخرة ، إذ ان كلا من هذه البواخر
تقل عشرين عربته من عربات السكة الحديد الكبيرة المعروفة ، فيأخذها السيارات
وعربات النقل الكبيرة . وما يكاد القطار الحديدي يستقر في جوف الباخرة
حتى يهرع المسافرون الى الخارج ويمتطي كل جماعة منهم سائماً الى طبقاتها
العليا ، ويتوزعون في غرف المائدة ، وقهوات الباخرة وباراتها وشرفاتها
وظهرها ، ويقضون ساعة أو اثنتين أو اربعاً أو أكثر يأكلون ويشربون
ويلهون ، حتى تلقى السفينة مراسيها ، فتقرع النواقيس ايذاناً بالوصول ،

ويسارع الركاب إلى أماكنهم في القطار ، استئنفا للسفر براً . ومما يزيد الرحلة البحرية بهجة ، أن البحار بين الجزر هادئة مصقولة ، كأديم السماء في يوم صحو سكنت فيه الرياح .

وربما نسي أكثر القراء مثلي أن لدانيمركة مستعمرة واحدة ، (إذا استثنينا جزيرة ايسلندا التي كانت تابعة لملك دانيمركه) . وهذه المستعمرة جزيرة أيضاً كسائر الوحدات التي تتكون منها تلك البلاد . ونعني بها جزيرة الارض الخضراء (جرينلندا) ، تلك الجزيرة النائية المتغلغلة في الشمال ، وتبلغ مساحتها ٧٠ ألف ميل مربع ولا يتجاوز عدد سكانها ١٥ ألف نسمة . بيد أنها عظيمة الأهمية لبلاد الدانيمرك ، إذ أنها غنية بتجارة الفراء الغالية الثمن ، وهي أكثر جودة من فراء كندا مثلاً ، لأن ثعالب كندا أليفة يربونها كالدواشي ، في حين أن ثعالب الارض الخضراء برية يصطادونها في أشد الاصقاع تجمداً وبرودة ، ولشدة البرودة هذه يعزى ما تمتاز به فراؤها من التماسك والامتلاء . ويعقد في كوبنهاجن عاصمة الدانيمرك كل عام سوق الفراء الشهير ، الذي تعرض فيه فراء جميع الثعالب التي صيدت في العام السالف ، وتحفظ أئمنها في البلاد ويصدر الباقي إلى الخارج . وشركة الفراء الملكية فيها أكبر شركات اوروبا وقد تأسست سنة ١٨١٦ . ولما كانت الدانيمركة من أكثر بلدان العالم عطفاً على رعاياها ، وأشدّهم سهرًا على راحتهم ، فإن الأرباح التي تدرها تجارة الفراء تخصص برمتها لتحسين حال الاسكييمو في تلك الجزيرة (الارض الخضراء)

الفصل الثانى

كوبنهاجن

العاصمة فى مملكة صغيرة كالدانيمرك تكاد تكون كل الدانيمرك ، كما أن فينّا عاصمة النمسا تكاد تكون كل النمسا ، فلا غرابة إذا أسهبنا فى الكلام عن كوبنهاجن ، إذ أن فيها نجد مرآة لتلك الجهود الاجتماعية الجبارة التى بذلها زعماءها ، فأصبحت هذا النموذج الاجتماعى الذى نقدمه للقراء

كوبنهاجن ، عاصمة دانيمرك ، شهيرة ببنائاتها التاريخية التى تقام عهدها ، وبيوتها الحديثة التى تجمع العمارة فيها بين الفن الجوتيكى ، والفن الباروك الكلاسيك ، وفن النهضة العالمية Renaissance ، والفن المغربى أحياناً . ويكفى أن يقال أنها من أجمل مدن العالم ، وأكثرها بهجة ورونقاً ، وأشدها نظافة . وتكاد تزدحم بالمتاحف ، ودور الآثار ، والفنون الجميلة ، والحدائق العامة الواسعة الأرجاء ، المنسقة بطرق هندسية فنية تأخذ بالالباب . وقد زادت الطبيعة جمالاً بما أودعت فى أرجائها من البحيرات ، والخلجان والقنوات التى تنساب من البحر حولها ، وما شيدته يد الإنسان من المرافىء ، والقناطر ، والتماثيل ، وما لا يحصى من النافورات التى يتفجر من عيونها الماء . أما مخازنها التجارية فتمتاز بحسن الذوق الذى

روعي في تنظيمها وتزيينها ، وعرض السلع في نوافذها . ويوجد بها من المطاعم ما يندر وجودها في مدينة أخرى ، من حيث جودة الطهي ، واتساع الأرجاء ، وتعدد الأنوار المتلائة ، ويظل أكثرها مفتوح الأبواب إلى الساعة الثانية صباحاً ، ويفتح بعضها بين الساعة الثانية صباحاً والخامسة صباحاً ، استعداداً لطعام الإفطار .

وسكان كوبنهاجن على الأخص مولعون بأنواع الخبز والإكثار من الزبدة واللبن والشهد أو الحلوى ، وأنواع الجبنة في طعام الإفطار . فإذا دخلت مطعمًا صباحاً أحضرت لك الخادمة على الفور « صينية » ملاء بستة أنواع أو سبعة من الخبز الطازج أو أكثر ، وطبقاً من الجبنة ، وكمية كبيرة من الزبدة ، وبيضاً ، وقشدة ، وعسلاً . وليس الخبز هذا سوى ألوان متعددة من « الكعك » اذ لا بد أن يكون معجوناً باللبن مضافاً إليه قليلاً من الزبد والسكر (عدا الخبز الأسمر) . وهو واللبن أشهى ما ذقنا في ما شاهدناه ، في ممالك أوروبا وأميركا . ومما يدل على وفرة المواد الغذائية لديهم أن ثمن هذه الأكلة لا يتجاوز ستة غروش مصرية ، مع مراعاة أن إبريق اللبن وحده يساوي ثلثي هذا المبلغ على الأقل ، وكمية الزبدة تساوي الثمن كله في أي بلد آخر ، وأن أنواع الخبز الشهية غير محدودة الكمية ، فيستطيع الأكل أن يستهلك ما يشاء منها

ونعود إلى جمال المدينة فنقول أنه رغم ارتفاع نسبة السيارات فيها كما أننا ، فإن حركة المرور فيها تكاد تكون بريئة من السيارات ، وعيجها ، وضوضاء أبواقها ، ورائحة بنزينها — وما ينشأ عن ذلك من تعكير صفو

المدن والذهاب بجملها ، ولعل سبب هذه الظاهرة المساحات الواسعة المخصصة للحدائق العامة ، وما يدور حولها وما يحترقها من الشوارع الفسيحة . بيد أن هناك سبباً آخر ، وهو أن الناس على ما يبدو لنا أكثر ميلاً لركوب الدراجات منهم إلى ركوب السيارات ، والدليل على ذلك أن كوبنهاجن وحدها بها نحو ٤٠٠ ألف دراجة أى أنه يكاد يكون لكل اثنين دراجه . ولا يكاد الواحد يسير عدة خطوات حتى يرى قافلة من الدراجات يحرك عجلاتها جيش عرمرم من الرجال والنساء والأطفال . وقد رأينا قنطرة مشهورة في حي مطروق من أحياء المدينة ، قيل لنا أن الدراجات التي تمر عليها - في بدء أوقات العمل ونهايتها - تبلغ أربعة آلاف في الساعة الواحدة . وتذكرنا كوبنهاجن بمدينة الهاي عاصمة هولندا فإنها تشبهها بكثرة الدراجات وراكبيها . وقد فطنت بلدية كوبنهاجن لحاجة السكان لأماكن يحفظ فيها الناس دراجاتهم ، فأعدت لهم مساند في أماكن عامة عديدة ، وتبلغ عدد المساند في بعض هذه الأماكن مئات (١) . ويلوح لنا إن سرقة الدراجات غير مألوفة هناك فقد رأيناها تترك في كل مكان بغير رقيب . وقد شاهدنا مثل هذه الظاهرة في مدينة أكسفورد ، فقد أعدت البلدية هناك « مواقف » للدراجات ، وذلك لأن السكان وطلبة جامعة أكسفورد على الأخص ، لا سييل إليهم للانتقال من بناء إلى آخر من بنايات الجامعة البالغ عددها الثمانية والعشرين . ولعل

(١) في بعض مدن أوربا توجد أرصفة خاصة لمروور الدراجات بجانب أرصفة المارة . أمافي مدن أميركا الكبرى كنيويورك لا توجد دراجات بتاتاً إلا في الأحياء المتطرفة المؤدية إلى الضواحي

السبب الأكبر لركوب الدراجات هناك أن التقاليد لا تمنع أكبر الناس مقاماً من استعمالها . فملك البلجيكي كان يحترق الشوارع والحدائق العامة بدراجه ، ولا يجد في ذلك عيباً ، كما أن ملك الدانيمركة ، يمتطي جواده كل صباح بغير استثناء ، ويتجول في انحاء المدينة بغير حارس ، او جندي ، أو رجل من رجال حاشيته

ولا يسمع الزائر الذي يقضي زمناً كافياً في عاصمة تلك البلاد ، إلا أن يدرك لأول وهلة ، أن أولى الشأن لم يتركوا باباً لتجميل المدينة إلا وطرقوه ، ولم يتركوا فناً من الفنون الجميلة إلا واستثمروه في هذا السبيل ، ولم يدخروا مالاً إلا وبذلوه . وقد قضينا زمناً في أحقر أحياء المدينة مع صديق لنا من جامعة كوبنهاجن ، مولع بالدراسات الاجتماعية ، فلم نر أثراً للمنازل المتداعية القدرة ، التي نراها في بعض المدن الكبرى ، وأكثر ما يقال فيها أنها بيوتات متواضعة صغيرة ، تمتاز بالنظافة والبساطة والرشاقة . وقد سبقنا الإشارة إلى أن البذخ والإسراف وروح الاستقرارية تكاد تكون عديمة الأثر ، إلا أن هذا النادر الموجود منها بالغ حد البذخ ، فقد شاهدنا بناية يتخذها هذا النادر من « أولاد الذوات » لقضاء سهراتهم ومجوسهم ، وهي مكونة من عدد كبير من « الشقق الصغيرة » التي يبلغ إيجار « الشقة » الواحدة منها مئة جنيه بالعملة المصرية في الشهر الواحد ، عن ثلاث غرف بغير زيادة أو نقصان . وهذه المساكن أكثر بذخاً من مثلها في مدينة لندن مثلاً حيث يستأجر أولاد الذوات والعزاب الأرستقراط

من البنايات التي يطلق على مساكنها اسم plus flats أو luxury flats كما في حي بارك لين - يستأجرون الشقة الواحدة وعدد غرفها اثنتان فقط بأجرة قدرها خمسون جنيتها في الشهر الواحد

ومما يسترعى الأنظار في كوبنهاجن وفرة الملاعب المعدة لكرة القدم وعظيم مساحاتها ، وقد قيل لي أن أكثر هذه الملاعب كان ساحات عسكرية يتدرب فيها الجنود ، بيد أن سكان دانميركه ، كسائر أمم اسكندناوه ، أكثر الناس كراهية للحروب ، وأشدهم حباً للسلام ، ولذا جعلوا الحد الأقصى لجنودهم عشرين ألفاً ، وخصصوا الساحات التي كان يتخذها الجنود ميदानاً لحركاتهم العسكرية ، ملاعب رياضية ، وقاموا بتحادث أحداً بغير أن يكرر لك مشى وثلاث ورباع ، ميل الناس بطبيعتهم إلى السلام . ويتجلى هذا الروح في الدروس التي يتلقاها طلبة المدارس الثانوية الشعبية ، ومناقشتهم ، كما يتضح في فقرات تلي .

قلنا أن البلاد لا تدخر جهداً أو مالاً ، أو وسيلة الفن ، فن تجميل المدن والريف على السواء ، وهنا نذكر مثلاً واحداً من الأمثلة العديدة التي نستطيع إيرادها ، بياناً لتضافر الأهالي والحكومة في هذا السبيل . وهذا المثل خاص بعمل هائل من معامل الجعة (البيرة) . ولا بد أن يتساءل القارئ عندما تفرع أذنيه هذه الكلمة ، كيف يستسيغ كاتب أن يتحدث عن مصنع لشراب المسكرات . وهنا أسارع فأسأل القارئ صبراً جميلاً ، ريثما يبدو الغرض الذي دفعني لتخير هذا المثل دون سواه . وقبل أن أبدأ الكلام عن هذه المؤسسة العظيمة ، أقول قبل كل شيء أن

سكان الدانميرك، كمعظم سكان أوروبا، لا يجدون في شرب الجعة المعتدل ما يؤخذ عليه من الناحية الأخلاقية، إذ إن الجعة عندهم كشراب الليمون أو البرتقال. يضاف إلى ذلك أن الدانميركيين شديديو التمسك بالتقاليد الدينية والخلقية، وجميع مدارسهم ومستشفياتهم وسائر مؤسساتهم الاجتماعية، أساسها هذه التقاليد، خصوصاً ما يتصل منها بمبادئ الكنيسة اللوثرية من مذهب البروتستانت. وسواء أخطأوا في تحليل هذا المبدأ أم أصابوا، فليس هذا بيت القصيد.

هذا المصنع على ضخامته، وما يتجلى فيه من عظمة الصناعة والعلم، ونهاية التنظيم وحسن الإدارة، ملك لأحد الأفراد، وتخصص جميع أرباحه الطائلة برمتها لخدمة الفنون الجميلة، وفلاحة البساتين، ودور التحف والآثار، وتجميل المدينة — شوارعها، وميادينها، وحدائقها العامة. وإذا أردت الوقوف على ما يدره هذا المصنع عن الأموال، فاعليك إلا أن تغمض عينيك، وتتصور ٢٧ بناء تخصص لصناعة الزجاجات (الفارغة) فقط، وتصور أن ألفي عامل من الرجال والنساء يعملون ليلاً ونهاراً، لاخراج مليوني زجاجة من الجعة يومياً، و٦٠٠ ألف زجاجة من شراب الليمون والعنب والبرتقال كل يوم، وبمسألة حسابية بسيطة، قدر الأرباح السنوية التي تتجمع من هذه المقادير، وما يتأتى عنها من ترقية الذوق السليم، ورفع مستوى الفنون الجميلة في العاصمة.

وليس بدعاً أن يتباهى سكان كوبنهاجن بهذا المصنع، فيدعون السياح لمشاهدته يومياً، ويقولون وعلى وجوههم علامة السرور والتفاخر،

أن كل زجاجة من جعة « كرلسبرج » تستهلك في دانميركة أو خارجها ،
تساهم مساهمة فعلية في تجميل العاصمة ، وترقية معالمها الفنية والثقافية .
ومما يذكر بهذه المناسبة أن اللجنة التي تقوم بإدارة أموال هذا المصنع
والانفاق منها على تجميل المدينة ، طالما أنطت سير فلاندرز بترى
(Sir Flanders Petrie) العالم البريطاني بالآثار المصرية (وقد توفي منذ
سنوات قليلة) ؛ بالحفر والتنقيب عن آثار مصرية لحساب مدينة
كوبنهاجن ، ودور الآثار والمتحف فيها . وتذكرنا هذه المسألة بتمثال
النيل الشهير المعروف باسم (Nilo) ، الموجود في متحف الفاتيكان في
روما ، فقد رأينا صورة منه في حديقة من حدائق كوبنهاجن العامة ،
وقد أتقن المثال صنعها من البرونز . وربما يذكر القراء أن إدارة الفاتيكان
عرضت على الحكومة المصرية إهداءها هذا التمثال الذي يمثل رجلاً قويا
يحيط به عدد من الأطفال ، رمزاً للإنتاج والخصب ، بشرط أن تصنع
الحكومة المصرية على حسابها صورة منه لتضعها إدارة الفاتيكان مكان
التمثال الأصلي ، ولم نسمع بعد شيئاً عن تحقيق هذه الرغبة .

ولا يكاد الزائر تطأ قدمه وحدة من وحدات هذا المصنع إلا وتأخذه
الدهشة لأمرين على الأقل ، أولهما جمال البناء ، والنزق الفني السليم الذي
روعي في تنسيقه ، والنظافة التي لا ترى مثلها إلا في غرف الجراحة أو في
أرقى المستشفيات . وأول ما يلفتك عند مدخل البناء الرئيسي ، تماثيل
عظيمة الضخامة لأفيال هائلة تحمل على اكتافها أعمدة البناء . والأمر
الثاني استخدام كل ما يمكن استخدامه من الوسائل العامة البالغة حدود

الدقة والنظام ، في إدارة هذه المصانع . ولسكان كوبنهاجن الحق في المباحة بأن مصانعهم هذه كانت أول مؤسسة في العالم ، تنتهز الفرصة لاستكشاف العالم الفرنسي باستور (Pasteur) في تعقيم السوائل ، واستخدام طريقته في تعقيم الجعة وشراب الفواكه . وقد أحسن صاحب المصنع في بناء شرفات مستطيلة حول الحوائط الأربع داخل المصنع الكبير ، يقف فيها الزائرون بالئات ، للتفرج على عظمة الصناعة والعلم ومئات العاملات والعمال وقوفاً مكتوفي الأيدي ، والآلات الدقيقة تتحرك من تلقاء ذاتها فتدخل الزجاجات من ناحية وتخرج من الأخرى مملوءة ، مقفلة بالسدادات المحكمة ، مكسوّة بالورق المذهب وعليها اسمها ، مصفوفة صفوفاً منظمة ، موضوعة في صناديق تقفل إقفالاً محكماً ، معدة للشحن . وقد لاحظنا أن الخيول والنساء العاملات في هذه المصانع ، تبدو عليها الصحة وتمتاز بضخامة الجسم وامتلاء البدن وكثرة الشحم ، ولسنا ندرى إذا كان هذا بفعل الجعة أو بطريق الصدفة

ومن أغرب ما شاهدنا في هذا المصنع قاعة كبيرة مستطيلة تصلح قاعة جميلة للمحاضرات ، صفت فيها موائد طويلة بديعة الصنع ، من خشب البلوط الجيد ، تصلح لغرفة المطالعة في مكتبة عامة ، وقد امتلأت بكراسي جميلة تتفق ورونق القاعة ، ولون الموائد . وقد نقشت فوق الحوائط صور فنية زيتية كبيرة ، تدل على براعة رسّاميهـا . وجميعها صور رمزية كتب تحتها عبارات وطنية حماسية ، دقيقة المعنى ، بعيدة المرمى . وهذه القاعة الوحيدة في بابها تسع نحو ستمائة زائر ، وهي مفتوحة الأبواب يومياً ،

صباح مساء ، لجميع السياح الذين يفدون مع أدلائهم ، مبعوثين من شركات
السياحة العديدة في المدينة ، وكنت أعتقد أن هذه القاعة مخصصة لمحاضرة
تلقى علينا ، ولكن ما كدت أنظر حولى حتى رأيت جميع المقاعد مشغولة
وزجاجات الجعة وشراب الليمون والتفاح والبرتقال والعنب ، والكؤوس
قد ازدحمت بها الموائد على سعتها ، وأخذ السياح يحتسون ما شاءوا من
الشراب ، وكل ما طاب لهم ، بغير أن يدفعوا لها ثمنًا ، واخدم يشجعونهم
على استهلاك هذه الزجاجات . وقد خطر لنا أن نراقب عن كثب الأمم
المختلفة وما تستطيبه من أنواع الشراب ، فلاحظنا أن الألمان أكثر
استهلاكًا للجعة ، يليهم الانجليز ، وقد احتسى شاب الماني ست زجاجات
في أقل من نصف ساعة . أما السياح الأميركيون فكانوا أكثر استهلاكًا
لعصير الفواكه . وقد تساءلت بعد مشاهدة هذا الجيش ، كم عشرات
الألوف من الزجاجات يستهلكها السياح يوميًا بغير ثمن ، إذا كان هذا
مقدار ما استهلك أمام عيني في بضع دقائق ؟

ومما استرعى أنظارنا هنا نسبة الكحول المئوية في الجعة ، فإن بعضها
لا يتجاوز ٢٪ ، والبعض الآخر ١/٤ ٪ ، أو ٦٪ ، أو ٩٪ ،
والبعض الآخر يعلو إلى ٢٤٪ ، وقد قيل لنا إن معظم ما يستهلك في
دائميكره من النوع الأول ، أى الذى لا تزيد النسبة فيه عن ٢٪ ، وتعلو
هذه النسبة في ما يصدر للخارج بنسبة بُعد البلدان التى تستصدرها عن
دائميكره . فالجعة التى تبلغ النسبة فيها ٢٤٪ من الكحول مثلاً تصدر إلى
مملكة صيام في جنوبى آسيا الشرقى (وتدعى الان تايلند)

فماذا يقول علماء الأخلاق في مشروعية هذه المصانع الكبيرة؟ هل
يبررون عملها الخيري البحت بحجة أن سكان تلك المملكة، كسائر سكان
أوروبا، لا يجدون في الجعة ما يؤخذ عليه كما سبق القول؟ أو يبررون
غرضها الانساني الشريف بحجة ان الغاية تبرر الوسطة؟ وهل يذكرنا
هذا بايطاليا الحديثة حيث يفرضون ضريبة على العزاب من الذكور، ثم
ينفقون هذه الضريبة على الأمهات، فتمنح الأم المحتاجة سواء أكان
طفلها (ذكراً أو أنثى) شرعياً أم حملت به سفاحاً؟

ان هذا المصنع الذي خصص صافي ايراده لتجميل كوبنهاجن ليس
حديثاً، ولكنه تأسس سنة ١٨٤٧، ومنذ سنة ١٨٧٥ الى هذا اليوم فإن
صاحبه « جيكونسن » يضع كل عام أرباحه الطائلة في يد لجنة خاصة
لانتفاقيها خدمة لهذا العمل المشكور. فهل في هذه التضحية ما يستحق
التقدير، رغم مصدرها؟

ومن البنايات التي أعجبتنا بها في كوبنهاجن محطة السكة الحديدية
الرئيسية. قلماً يجد الانسان محطة مثلها روعي فيها الجمال والنوق السليم،
فجل ما يمكن أن يقال عادة وصفاً لمحطة انها بالغة حد الضخامة كجراند
سنترال في نيويورك، أو انها تشمل كل ما يحتاج اليه المسافر، كمحطة
شيكاجو، بيد أن محطة كوبنهاجن جمعت بين المنفعة والجمال في صعيد
واحد. فمن الجهة الواحدة تجد كل ما تريده كسافر، من مطاعم، وقاعات
الجلوس، ومكاتب البريد، والتلغراف، الخ الخ وتجد أكثر من ذلك

صناديق (اتوماتيك) تضع في ثقب فيها النقود فتخرج لك أوراق للكتابة أو سجائر أو مناديل . وأكثر من ذلك توجد آلات كتابة تضع في ثقب في الواحدة منها قطعة من النقود ، فتسمح لك باستعمالها زمناً معيناً . هذا من جهة المنفعة ، أما من جهة الجمال فحدث عنها ولا حرج ، فهي أجمل ما رأينا من هذا القبيل في العالم ، وربما كانت المحطة الوحيدة التي تدانيها ولكن لا تستوى معها في الجمال ، هي محطة فلورنسا في إيطاليا . لست أستطيع أن أصف زى البناء ولكنه أقرب إلى الفن العربي أو البيزنطي من كل شيء ، تزين أحد سقوفه قبة كبيرة شاهقة تطل من مركزها على الناظر إليها ساعة كبيرة الحجم ، وتتلأ جدارها نوافذ زجاجية مقوسة كبيرة وتزين أرضيتها قطع من الرخام المتعدد الألوان . وقد شاهدت في مدينة السينور (Helsinor) محطة تطل نوافذها وشرفة المطعم فيها على البحر ، نخيل إلى أنها « كازينو » لا محطة للسكة الحديدية ، خصوصاً وان الأمواج الزاخرة المتلاطمة ، والبحر الصاخب في تلك البقعة ، والصخور الضخمة الطبيعية ، والتمثال الرمزي الذي يغطي قاعدته الماء أحياناً وينجلي عنها أخرى — كل هذه تجعل ذلك البناء من الخارج أقرب إلى مكان من أمكنة اللهو منه إلى مكان معدّ لراحة المسافرين

وليس من السهل على الكاتب أن يرسم للقارئ صورة لمعالم المدينة ، فان عددها لا يحصى ، ونفائسها من الدقة والرشاقة ما يعجز القلم عن إيصالها النذر اليسير من حقها . ونذكر من هذه المعالم قلعة كرستيانبورج ، وهي قلعة قديمة يرجع عهدها إلى القرن الثاني عشر للميلاد ، كان حصنها الاسقف

المحارب ابسالون ، ولما تهدمت شيد على أنقاضها ملوك دانميركه البناء
الحالى ، الذى ظل زمناً طويلاً مقراً لهم . أما الآن فيشغله البرلمان بمجلسيه ،
ومحكمة الاستئناف العليا ، ووزارة الخارجية ، فضلاً عن مكتبة الملك ،
وقاعة الحفلات الملكية الكبرى ، ومطعم مجلس النواب — وجميعها
مفتوحة للجمهور فى أيام معلومة ، إذ أنها دور للتحف النادرة والصور
الفنية والتماثيل الجميلة . ومن أبدع ما يراه الزائر الجناح الخاص بمجلس
النواب وهو ثلاثة طوابق ، الأول فيه للنواب وعددهم ١٤٩ والوزراء
وعدهم ١٠ ، أما الطابقان الآخران فللملك والصحافيين ورجال السلك
السياسى ، والجمهور . ومما يستحق الذكر ان أجمل ما فى مجلس النواب
كرسى الرئيس ومنصة الخطابة والمسرح ، وجميعها من صنع نجار من الجنس
اللطيف ، وهى بنت أحد الوزراء . أما قاعة الرقص فأكبر قاعات القصر
وأكثرها فخامة ، فقد كسيت جميع جدرانها بالحرير المشغول من صنع
الفنى Eichen ، ويرجع عهداها الى القرن السابع عشر ، وزين سقفها بصورة
رمزية تمثل خرافة (ميثولوجيا) تدور على السن الدانميركيين — وهم
مولعون بالميثولوجيا — كما سيتبين بعد . ومغزاها أن محنة حلت ببلادهم
فظلت حقبة من الدهر طويلة بغير ملك . وحدث يوماً أن شاهد الناس
سفينة شراعية تمخر عباب البحر ، بقلاعها البيضاء الجميلة ، قادمة نحو
المدينة . فاكثظ الشاطئ بالسكان ، ولشد ما دهشوا عندما رست
السفينة ، فألقوها محملةً بالذخائر والهدايا الغالية ، وتفقدوها فلم يجدوا فيها
رباناً أو بحارة ، ولكنهم وجدوا طفلاً وسيماً ، بديع الخلقة ، مستغرقاً فى

النوم ، ملقى فوق درع ، مسنداً رأسه إلى حزمة من الحنطة ، فأيقنوا انه
مرسل من مقر الآلهة (Valhalla) ، فنصبوه عليهم ملكاً . ومنذ ذلك
الحين يطلق على ملوك الدانميرك لقب Skjold وهى الكلمة الدانميركية
التي معناها درع shield . ويرى القارىء من هذه الميثولوجيا إخلاص
الدانميركيين لملوكهم ، ومباهااتهم بطبيعة بلادهم الزراعية

والدانميركيون شديداً الولع بتاريخهم القديم ، وما يتعلق به من
أحدوثة ، وشعر ، وخرافة . وليس ثمة طفل في البلدان التي تنطق باللغة
الانجليزية ، إلا ويعرف ظهراً عن قلب حكايات اندرسن الخرافية ، مترجمة
عن الدانميركية . واسم كرستيان اندرسن ، يكاد يدانى شكسبير في شهرته
العالمية ، ويكاد أهل تلك البلاد يقدسونه ، وقد نصب له في حديقة الملك
تمثال جدير به ، ونصب في البحر عند مدخل متنزه لنجليني من المتنزهات
العامة ، وعلى مقربة من اليخت الملكي ، تمثال من أجمل ما تقع عليه العين ،
للفتاة المعروفة في عالم الأدب الأوربي بأسره ، باسم العذراء الصغيرة
The Little Mermaid . ولا يدرك أحد الأثر الذي تركه ذلك الكاتب
العظيم في أبناء وطنه ، قبل أن يلبس عشائهم ، ويقف على عاداتهم .

ويجد السائح على مقربة من حديقة اسبلانادن Esplanaden أثراً
عظيماً من ميثولوجيا دانميركه في نافورة ، نحجم عن أن نحاول وصفها
احتراماً لها وإجلالاً ، إذ أن جمالها فوق كل وصف ، ولغتها الفصيحة
الغنية بحلو المجاز ، وبديع الاستعارة ، فوق كل لغة ، ودون كل بلاغة ،
وهي بلا شك أبلغ ما امتد إليه أزميل المثال في تلك البلاد وأروع .

وتنطوى هذه الخرافة على أحداثه هي في ذاتها دليل على ما انطوت عليه نفوس الدانيركيين اليوم من مرح الفؤاد ، وطهارة القلب ، وسمو الخيال ، والسداجة البريئة ، وحب الجمال . وخوى هذه الأحداث التي يتغنى بها سكان اسكندناوة جميعهم ، وعلى الأخص سكان دانيركه ، أن « فلهلا » التي سبق ذكرها ، كانت مكاناً سحيقاً ، اتخذته الآلهة مقراً لها . وكان من عادة هؤلاء الآلهة ، أن يكافئوا كل محارب باسل أتى أمراً مشكوراً ، وكل محارب مات في ساحة الوغى ضحية الواجب ، وذلك بنقله الى جنة الخلد في « فلهلا » حيث يبدأ صفحة جديدة لحياة خالدة جديدة ، في عالم الأبدية . وظلت دانيركه أحقاباً تبعث بكبار قوادها ، وبواسل محاربيها ، إلى مقراً الآلهة الخالد ، ولكن حدث أن أصاب البلاد العقم ، فتوالت الأعوام تليها الأعوام ، بغير أن يقوم فيها جندي شجاع خليق بجزاء الآلهة . فقلقت « فلهلا » وعيل صبر آلهتها ، وعقدوا بينهم مجلساً ، قرروا فيه أن يبعثوا رسولاً منهم الى الأرض ، يستجلى حقيقة الخبر ، ووقع اختيارهم على الآلهة الجميلة « جفيون » Gefion ، وكانت أجمل ما تقع عليه الأبصار ، ولكنها كانت أيضاً عشاقاً للجمال ، فما كادت تحط رحالها في الأرض ، وما كاد يقع نظرها على ملك السويد Gylfe في ذلك الحين ، حتى أخذ بمجامع قلبها ، وخلص لبها ، فوقع في حبائل غرامه للنظرة الأولى ، ونسيت المهمة التي بعثها زملاؤها من أجلها ، وعقدت زواجها على الملك الشاب ، ورزقت منه أربعة صبيان وبعد أن ذاقت لذات الغرام ، وتنعمت باطاييب الملك والرفاء والبنين ،

أطرفت ملياً في يوم من الأيام ، وإذا بها في سبات عميق ، وإذا بها تلقى
نظرة حكيمة الى الوراء ، فتوَلَّمها وَخَزَات الضمير ، وتستيقظ من سباتها ،
وتذكر المهمة التي نيط بها القيام بها ، فتشدر حالها أهبة للرحيل .
ولكنها قبل أن ترتفع الى سماء «فالهلا» رجعت الملك أن يهب أبناءها قطعة
مستقلة من الارض ، تطمئن اليها عليهم . فوعده على الفور أن يهبها من
الارض ما تستطيع حرثه في يوم واحد. ولما أن أرخى الليل سدوله ، مسَّت
بنيتها الاربعة بيدها السحرية ، فحولتهم ثيراناً اربعة على جانب عظيم من
القوة والضخامة ، وبكرت عند شروق الشمس إلى قطعة واسعة من
الارض - هي شبه جزيرة محاطة بالماء من ثلاثة جوانب - وأخذت
تنهب الارض نهباً بثيرانها ومحاريثها ، حتى أنه لم تغيب الشمس وراء الافق
حتى أتت على نهاية مهمتها . وقد بلغ الحرث من العمق في بعض المواقع
ما جعل الماء يندفع من ناحيتين فكوّن بوغازاً . وما الارض التي حرثت
الا جزيرة زيلندا اليوم ، وما البوغاز الا ذلك الذي يفرق بين الدانيمرك
والسويد ، ويربط البلطيق بالكاتيجات . وعلى هذا نصبت هذه النافورة
الرائعة واطلق عليها اسم الآلهة « جفيون » . ونرى في هذه الخرافة ايضاً
اتجاه الدانيمرك الى الارض والزراعة ، واتصالهم بها بالامس ، اتصالهم
بها اليوم

ومن معالم كوبنهاجن دار البلدية ، وهي على حدائثها (تم بناؤها سنة
١٩٠٣) اكبر مباني العاصمة ، إذ يبلغ عدد غرفها ستمائة ، وبها مقر رئيس

البلدية ويعينه الملك وخمسة عمد ، وخمسة مشايخ ، ينتخبهم ٥٥ نائباً محلياً ،
وهؤلاء ينتخبهم سكان كوبنهاجن

وهناك مصنع تاريخي للصيني (Bing & Gridahl) ، تأسس سنة
١٨٥٣ ، وله شهرة عالمية عظيمة ، ويتصل به عدد يذكر من كبار رجال الفن ،
كما أنه يفاخر بتوريد بضاعته إلى عدد من ملوك أوروبا في إنجلترا والسويد
ونرويج ، وبلغ عدد عماله اليوم ٢٥٠ عاملاً . كذلك يوجد في العاصمة مصنع
الفضيات المشهور باسم صاحبه جورج جنسن Jensen ، وقد كان هم هذا
المصنع منذ انشائه ، تعميم الاواني الفضية الجميلة ، حتى يتسنى للجميع
استعمالها في منازلهم ، لا للمناسبات الخاصة وحسب ، وإنما للحاجة اليومية
ايضاً . وقد أودع رجال الفن في هذا المصنع ومصنع الاواني الصينية روح
الدانيمركيين ، ونظرتهم العامة الى الفنون الجميلة ، ولا يسع الزائر الا أن
تسترعى نظاره كثرة السلع المعروضة في مخازنها من انتاج هذين المصنعين
ورخص اثمانها بنسبة نظائرها في بلدان اخرى

وفي أشهر أحياء كوبنهاجن توجد تيفولي (Tivoli) ، مدينة للملاهي ،
لم تر لها في العالم نظيراً ، وهي تشغل مساحة كبيرة ، لو بيعت أرضها في
ذلك الحى ، لربح أصحابها ما يعادل ثقلها ذهباً ، ولكنه قد مضى عليها مائة
عام ، وهي راسخة كالطود . ويعزى هذا الى اتقان هذه الملاهي ، وتعددتها ،
واتساع حدائقها ، وبداعة تنسيق اضوائها ، ونوافيرها التي يتخلل ماءها
المتدفق ، عقود الكهرباء المتلائية ، وإلى قاعات الرقص والتمثيل ونخامة
مطاعمها ، وعلى الأخص مطعم ففكس (Wivex) ، الذي قلما يوجد له

مثيل في العالم في جماله ونخامته ، ولا يفوقه في اتساعه ، الا مطعم فندق
والدورف استوريا في نيويورك في الغالب

ومن المناظر البديعة التي شاهدناها سوق السمك ، فان فيه معرضاً
لأزياء نساء الصيادين ، اللاتي يفدن مبكرات الى ساحة السوق في ملابسهن
الوطنية ، في الوانها الزاهية المتعددة ، لبيع ما يصطادهن . ولم نر
مثله للأزياء كهذا المشهد ، اللهم الا في بعض قرى هولندا . بيد اننا رأينا
منذ ثلاثة اعوام في مدينة زغرب من اعمال يوغوسلافيا ، سوق الزهور
والخضر والفاكهة . وهو بناء مؤلف من ثلاثة طوابق ، وساحة كبيرة
امامه ، وفيه يتجمع نساء الفلاحين من جميع القرى المجاورة ، كل بملابسها
الخاصة ، بلبستها ، والألوان والأزياء التي تتفق وعاداتها ، وحالة صاحبة
هذه الأزياء ، اذا كانت ارملة ، أو انسة ، أو متزوجة . ولا نغالي اذا قلنا ،
أن منظر هذه الملابس في الوانها وأزياها واشغالها اليدوية الدقيقة ، ومنظر
هذا الجيش العظيم من حسان النساء الساذجات الفلاحات ، أجل بعشرات
المرات ، مما يراه المارة من الأزياء واصحابها في شارع اكسفورد في لندن ،
وبرودواي في نيويورك ، وغيرها من شوارع باريس وروما وبرلين وفيينا
وبودابست

وعلى مقربة من أحد الميادين الكبرى يوجد برج للأرصاد الجوية ،
يستطيع المارة عن بعد الوقوف بوساطته على حالة الجو وتنبؤاته ، اذ به
مقياس للحرارة يمتد طوله بمحاذاة البرج ، ويضاء ليلاً بالكهرباء . ويطل
من إحدى نوافذ البرج تمثال ذهبي بالحجم الطبيعي ، لسيدة تحمل مظلة ،

إذا كان الجو ينذر بالمطر . وتختفي هذه السيدة ذات المظلة ، وتخرج من نافذة أخرى سيدة أخرى لا تحمل في يدها شيئاً ، إذا كان الجو يبشر بالصفاء والصحو . وتخرج السيدتان كلتاهما ، كل من نافذتها ، إذا كان الجو ينذر بالاضطراب وعدم الاستقرار

هذا ، وكوبنهاجن تكاد تشبه مدينة البندقية في أن البواخر الكبرى التي تحمل البضائع وتقل المسافرين من أميركا وآسيا وأستراليا وغيرها ، تلقى مراسيها على مقربة من جوف المدينة ، كما ترى السفن الصغيرة ، البخارية فيها والشرعية ، تخرق المدينة وتشق طريقها نحو الميادين الكبرى ، حيث تفرغ شحنها أمام منازل وقصور تاريخية أثرية ، فتزيد العاصمة رونقاً وجمالاً .

واختم هذا الوصف الوجيز للعاصمة ، كما رأيتها ، بكلمة استعيرها من عبارة استقاها مدير الكلية الشعبية الدولية من كتاب حديث لسائح في الشمال^(١) : —

« يقولون أنه منذ بضعة مئات من السنين مضت ، كان حراس أسوار المدينة يغلقون أبواب كوبنهاجن ، متى جنّ الليل ، ويسامون مفاتيحها للملك الدانيمرك أما اليوم فلم تعد هناك أسوار ولا أبواب ولا مفاتيح ، فتيفولى (Tivoli) ، مدينة الملاهي ، عاصمة العاصمة ، تظل مفتوحة الى الهزيع الاخير من الليل ، تدوي في أرجائها الأراجيح

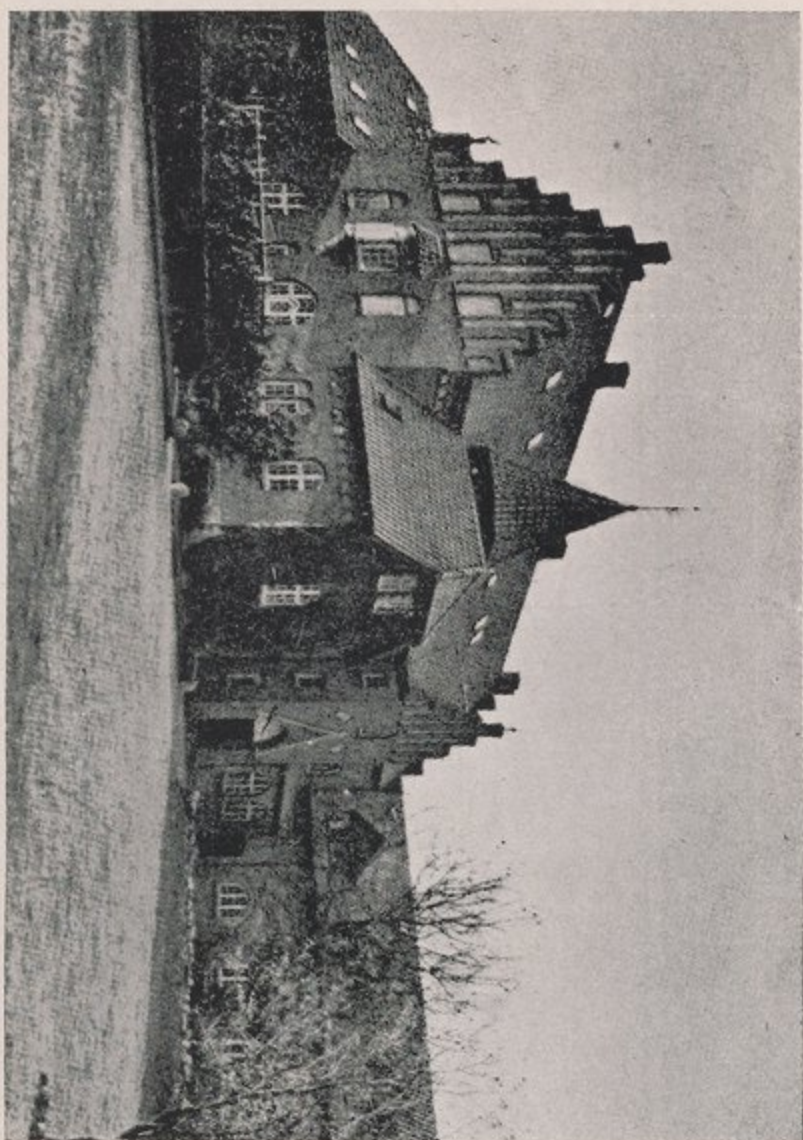
وطلقات البنادق ، وتعجّ بالوافدين اليها ، المراقص والقهوات والمطاعم
والحانات ، ودور الموسيقى والتمثيل ، وأماكن التسلية ، وتتلأأ في حدائقها
الأنوار ، وتتدفق الأمواه من نوافيرها ، تتخللها الأضواء الكهربائية
الملونة . في هذه الحدائق المترامية الاطراف ، الوحيدة في بابها ، تتمثل
روح الدانيمركيين المرحه ، الساذجة كوينهاجن ، مدينة الدراجات ،
التي يسمع أزيزها الخفيف في كل لحظة ، وترى راكبيها متجمهرين جماعات
وافواجا ، أو تراهم يتدفقون كالأنهار من مرتفعات الطرق والشوارع ،
واحيانا تراهم أزواجا يقطعون المسافات الشاسعة في هواده وسكينة ،
يتحدث الواحد لرفيقه ، ويتأبط ذراعه كأنه يسير على قدميه . . . مجموعات
فنية . وماذا ؟ أجل ، قنوات ، وأسواق للسماك ، قصور ملكية ، وحانات
البحارة تتصاعد منها نغمات الموسيقى ، فتخترق اجواف الليل الصافي الاديم . . .
بيوتات عريقة في المجد ، مخازن تجارية زاخرة ، فتيات حسان ، يتهادين في
ثياب زاهية الالوان ، داخل «صالونات» الازياء الحديثة . . . اطفال سمان ،
اصحاء الابدان هنا لا أثر للتسول ، ولا وجود للبؤس ، أو العبوسة
والوجوم .

very good

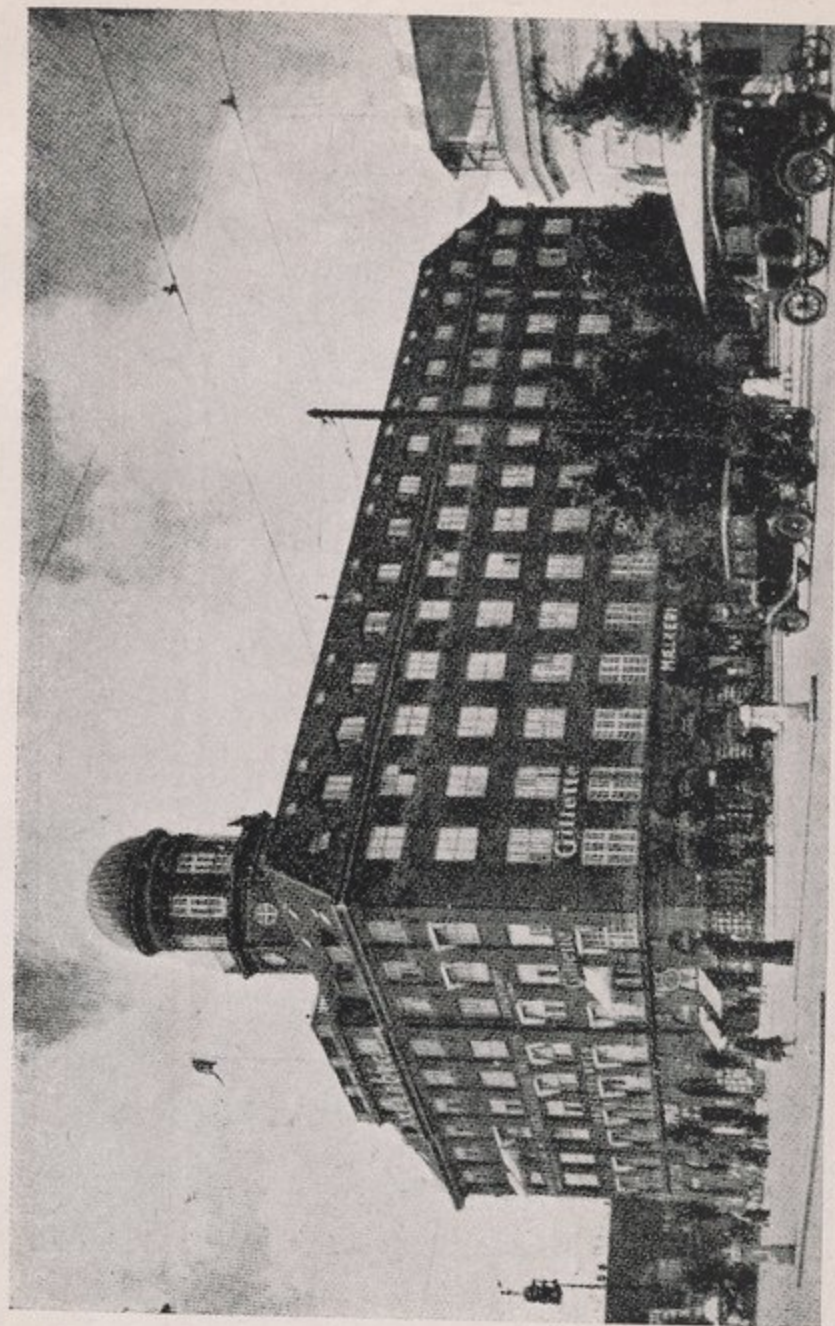
١٩٤٩/٤/١٩

مكتبة
الكتاب
القديم

مكتبة
الكتاب
القديم



مدرسة كرتند الشعبية



« أكسلبورج » مركز الجمعية الزراعية الدانيمركية

الفصل الثالث

الفروع والقرية

وعلى رغم ان نصف سكان البلاد من أهل الحضر ، أو شبه الحضر ، فان جميعهم ينحدرون من سلالات ريفية زراعية ، وانهم أحفاد قوم عاشوا على الزراعة منذ فجر التاريخ ، أو أبناؤهم . وليست دانميركة معروفة بعاصمتها الزاخرة ، ومدينها العامرة ، وانما دانميركة الأصلية هي أراضيها الزراعية التي تبدو طلائعها من البحر ، وتتغلغل في جوف الجزر ، كأنها تحمل على ظهورها قرى الريف الصغيرة المبعثرة هنا وهناك ، ذات المزارع المربعة البناء ، وأشجار الزان وطواحين الهواء ، ومعامل الألبان ، والكنائس البيضاء ذات السقوف الحمراء . وقد أبدع كاتب اسكندناوى في وصف الريف في قوله : « إذا أردت أن تكون صورة حقيقية من دانميركة ، فما عليك إلا أن ترقب عن كثب سكان الريف قبيل الشفق ، في مساء يوم من أيام الصيف راقت سماؤه ، عندما يستمع الفلاحون صلصلة الأجراس تنبعث من قباب الكنائس ، والشمس في طريقها إلى ما وراء الأفق ، وعندما ينطلق أسراب الفتيان يجالجلون في أحذيتهم الخشبية ، منتشرين في منخفضات الحقول ومرتفعاتها ، انتظاراً لحسان الفتيات ، من حاليات الأبقار ، في طريقهن الى بيوتهن »

ان دانميركة أقدم الحكومات الملكية في اوروبا ، وان موقعها الجغرافي في الجزء الشمالى من المنطقة المعتدلة ، مساحتها ١٧١٠٠ ميل مربع ، وتتألف كما أسلفنا من شبه جزيرة جوتلندا (وهى أكثر من نصف المساحة) ، و ٥٠٠ جزيرة ، ١٠٠ منها مأهولة بالسكان . والجزر أكثر ازدهاماً بالسكان من شبه الجزيرة ، إذ أن عدد السكان في كل ميل مربع ٤٠٠ في الأولى و ١٥٠ في الثانية . ويعيش أربعة ملايين إلا ربع مليون من الأ نفس في دانميركة في مساحة من الأرض تبلغ عشر مساحة السويد (وسكانها ٦٣٠٠٠٠٠) ، وجزءاً من ثمانية أجزاء من مساحة نرويج (وسكانها ٣٠٠٠٠٠٠) ، وجزءاً من ثمانية أجزاء من مساحة فنلندا (وسكانها ٣٧٠٠٠٠٠)

وليست دانميركة كسائر ممالك اسكندناوة في منابع الثروة ، إذ أن هذه الأخيرة تتعدد منابع الثروة فيها ، في حين أنها تنحصر في الأولى في أرضها المزروعة ، إذ أن نحو ٩٠ ٪ من مساحة البلاد قابلة للإنتاج ، و ٨٠ ٪ منها مزروع . وليست الأرض شديدة الخصب ، ولكن المناخ معتدل ، لا ينتقل انتقالاً فجائياً من البرد القارس الى الحر اللافتح . ففي الصيف تهب رياح غربية وشمالية غربية فيكون الصيف جميلاً ، وفي الشتاء ينزل الثلج والصقيع أحياناً ، وينعدم الثلج أحياناً ، فيظل بساط الأرض دائماً الاخضرار . وقد يهطل المطر أحياناً في موسم الحصاد ، فيكون سيئ الأثر في محصول

الحبوب ، ولكن تناوب الشمس والمطر ، يجعل الطقس بوجه عام صالحاً
للمزروعات

كان الفلاح الدانميركى فى غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر
فريسة لا حيلة لها ، فى محالب الأشراف . وقد كان لمظاهر العسف والجور
أثرها فى ضياع صفات الشجاعة والقتال والغزو ، التى كان يتصف بها أجداده
من أبطال الشمال (Vikings) ، فاستعاض عنها بالصبر والتأمل والتأنى ،
وغيرها من الصفات التى مثلها لنا شكسبير فى رواية هملت . وهملت تدور
روايته حول أمير دانميركى ، وله فى دانميركة تمثال أثرى ، وقبر يحجج اليه
السياح ، وفى قلعة كرونبورج يقيم الدانميركيون موسماً سنوياً تمثل فيه
هذه الرواية فرقة انجليزية شهيرة ، كما يرى القارئ فى غير هذا المكان .
وقد علم الفلاح التاريخ أن يتغلب على المصاعب بالتؤدة والابتناسام ، وأن
يستعيض عن حرية البدن ، الذى أنكرها عليه بنو وطنه الأشراف ، بحرية
الذهن ، والولوع بالأموال العقلية . وهناك ثلاثة عوامل جوهرية كان لها
الأثر الفعال منذ منتصف القرن التاسع عشر فى تنمية هذه الصفات ،
وهى الحركة التعاونية أولاً ، والمدارس الثانوية الشعبية ثانياً ، والتشريع
الاجتماعى ثالثاً . ولا نخطئ إذا عكسنا هذه العبارة بقولنا أن هذه
الظواهرات الثلاث التى تتخلل حياة الدانميرك ، وتميز شعبها عن غيرهم من
شعوب الأرض ، كان لا يتسنى لها أن تعيش وتزهو ، لولا ما امتاز به
الشعب من الصفات السابقة الذكر

وليس ثمة وسيلة لتفهم حالة الفلاح هناك ، سوى أن نذكر لمحة تاريخية عن الأدوار التي مرت به . لم يكد القرن الثامن عشر يطوي سنواته الأخيرة ، حتى كانت مسألة المسائل التي رأى عقلاء الدانيمرك حلها ، تحرير الفلاح من نظام الأقطاع . فقد كانت البلاد في ذلك الحين مقسمة الى اقطاع وعزب كبيرة المساحة (manors) ، وكان ملاك هذه الاقطاع من الأشراف ، يرغمون الفلاحين المستأجرين على قضاء أكثر أيام الاسبوع . في خدمتهم ، وتقليح أرضهم ، فلم يبق لهؤلاء من الزمن ما يكفي للعناية بالنزر اليسير من الارض التي يستأجرونها . فذب اليأس إلى نفوسهم ، وتسرب الكسل والاهمال وعدم الاكتراث اليهم ، خصوصاً في الجزر ، التي كان جور الأشراف فيها أشد منه في شبه جزيرة جوتلندا . وكان نتاج الفدان الواحد في ذلك الحين أقل من ثلث محصوله في السنوات الأخيرة . بيد أن عصر الاقطاع هذا ، لم يكن ليخلو من مزايا ، فقد كان لكل عزبة شيخ ينتخب لمدة عام أو أكثر . وكانت وظيفة هذا الشيخ أن يجمع الفلاحين من حين إلى حين ، تحت شجرة وارقة ، ممتدة الاغصان ، ليبحث معهم ، بطريقة تكاد تكون برلمانية ، في مسائل زراعية بحتة . غير أن آفة هذا النظام كان سيد الارض ، فانه كان حاكماً مطلقاً التصرف في حياة الفلاح ، لا مرد لسكتمته وما يمليه عليه من ارادته ولما أن الأوان حل هذه المشكلة العويصة ، لم يكن للفلاحين نصيب فيها ، لما كانوا عليه من الضعف والخنوع . ويعزى كل الفضل

إلى حكومة أوتوقراطية أتيح لها القيام على أنقاض سابقتها ، فأخذت على عاتقها وضع أساس النظام الزراعي التعاوني الحالى ، الذى أصبح نادراً على علم . ففي سنة ١٦٦٠ هدم الملك سلطة الاشراف ، وعقد النية على وضع دعائم الملك على أساس العدل وصالح الامة جمعاء ، وليس لصالح طبقة خاصة منها . وقد عزز هذه النهضة على ممر السنين الروح الذى سرى فى أوروبا فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، فيما يتعلق بالحقوق الانسانية ، والتعاليم المسيحية فى المانيا واسكندناوه . وصادف فى ذلك الحين ارتفاع اسعار الجبوب وحاجة الاسواق الانجليزية الى الخنطة

على أن هناك عوامل أخرى ثقافية وروحية ، يعزى إليها تحرير الفلاح من النظام الاقطاعى وسلطة الاشراف . ومن هذه العوامل التعليم الالزامى ، فقد كانت دانيمركة فى مقدمة البلدان التى استتب فيها هذا النظام الذى يرجع عهده إلى سنة ١٨١٤ ميلادية

ولم تكن رسالة هذا النظام تعليم الفلاحين وحسب . وإنما كانت شديدة الاثر فى تكوين اخلق ، ورفع مستوى الفلاح الثقافى ، وتفهم المبادئ الدينية بالمعنى المقصود من الدين ، وهو خدمة الغير ، والمنفعة العامة . وقد كان للنهضات الدينية الأيادى البيضاء على تقوية هذه الروح فى المدارس الالزامية والمدارس الثانوية الشعبية ، حتى أصبحت الكنيسة ، أو المسيحية ، مرادفة فى معناها الى الاخاء والمساواة والعدل ، والخدمة العامة . وقد توجت هذه النهضة فى سنة ١٨٤٩ بوضع الدستور ،

وإنشاء الحياة النيابية ، وتكوينها من مجلسين ، وما تلا ذلك من مشروعات القوانين التي وزعت الأراضى توزيعاً عادلاً بين السكان ، وغيرها من الإصلاحات التي سيأتى ذكرها فى حينها .

ومرت بالفلاح الدانيمركى سنوات ذاق فيها مر الأزمات ، أسوة بسائر فلاحى العالم ، بيد أن حكمة الذين يديرون شئون الزراعين ، وفطنة الزراعين أنفسهم ، تظهر جلياً فى مثل هذه الظروف العصيبة . فى أواسط القرن التاسع عشر ظهرت عوامل خارجية شتى فى كثير من أنحاء المسكونة ، كانت سبباً فى رخاء الفلاح الدانيمركى : منها إلغاء قانون الحنطة المشهور فى إنجلترا ، مما دعا إلى فتح الأسواق الانجليزية لحاصلات الدانيمرك الزراعية ، وقيام الثورة الصناعية التى هرع على أثرها فلاحو الانجليز من القرى إلى المدن ، واكتشاف الذهب فى كاليفورنيا أولاً ، وفى استراليا ثانياً — مما أدت جميعها إلى ارتفاع الاسعار ، وتحسين حال المحصول الزراعى ، وإصدار الحنطة إلى إنجلترا والماشية إلى ألمانيا ، وامتلاء جيوب الفلاحين بالأموال ، وانتشار مصارف التوفير .

ولكن لم يدم العز طويلاً فقد أخذت ولايات أميركا المتحدة ، والجمهورية الفضية ، وسيبيريا ، فى منافسة دانيمركة فى إصدار الحبوب ، حتى كسدت بضاعتهم ، ولكنهم لم يلبثوا على هذه الحالة طويلاً حتى أداروا الدفة إلى ناحية أخرى ، وأخذوا يعدون بلادهم إلى إصدار اللحم المجفف (bacon) والزبدة ، بدلاً من الحنطة . فأكثرُوا من تربية الأبقار والخنازير ، وزراعة ما يصلح من الحنطة علفاً للبهائم ، وبذا سمت أبقارهم

وشبعت ، وتوافر السماد ، وزادت الأرض خصباً ، وتكاثرت الخنازير ،
حتى أصبحت زبدة دانيمركة اليوم ، ولحم خنزيرها المجفف ، والفراخ
والبيض فيها ، مضرب المثل . وما كان هذا التحول ليتسنى للفلاحين بهذه
السرعة ، لولا تعاون الجميع ، حكومة وأفراداً ، والعمل باخلاص
وطهارة ذمة .

ونستطيع أن يرسم القارئ في ذهنه صورة حقيقية للفلاح الدانيمركي
إذا وقف على شيء من حالة القرية الدانيمركية . وهما نحن نرسم صورة
مصغرة لها في السطور التالية ، كما شاهدناها .

القرية في دانيمركة ، نواة الحياة القومية ، وهي مرآة ينعكس في
مساحتها الصغيرة تاريخ الأمة ، تقاليدها ، شعرها ، أغانيها الشعبية ،
وأمانها الدفينة ، المتأصلة في النفوس منذ القدم . وأول ما يلفت القادم إليها
من الطريق العام ، بناية بيضاء ، يخرق برجها الدقيق الفضاء ، ويجلل سقفها
الهرمي الشكل طوب مرجاني اللون . هذه هي الكنيسة ، أقدم بناء في
القرية ، ويرجع عهده عادة إلى القرن الثاني عشر للميلاد ، العصر الذهبي
في تاريخ الدانمرك ، وحوله بنى السكان منازلهم الصغيرة ، وكتبوا تاريخ قريتهم
بمعاولهم وفؤوسهم ، وعلى مقربة منه قرية الأموات بأشجارها الظليلة ،
وشجيرات الجميلة ، وأزهارها الفيحاء ، وقبورها الصامتة . هنا يقرأ المرء
على رخام الرموس ، وتماثيلها الدقيقة ، شتى العواطف الحزينة ، ولغات
القلوب الكسيرة ، مترجمة شعراً ونثراً . وهنا يجد الحزين والزاهد والشاعر ،

سلوى وعزاء، فى أرض سقاها الناس بدموعهم، وغرسوا أشجارها وورودها
بأناملهم، وأودعوا فى جنباتها عهداً ووعداً وذكريات، بعضها يرجع
الى عصور وقرون وأحقاب، وبعضها لما يجفّ ماؤه بعد

ومن هنا لا تبتعد قليلاً حتى تأتى على مزرعة، لا هى بالصغيرة ولا
هى بالكبيرة. ولا تكاد تصل الى بابها حتى ترى حظيرة منعزلة — هى
للخنازير — ثم تفتح بوابة من الخشب، فترى امامك مدخلاً طويلاً تظلاله
عروش مستديرة، ترى على جانبيها حظيرة للدجاج، واصطبلًا للخيول،
وزريبة، ومرحاضاً، وغرفة للخادم (أو غرفاً للخدم)، وحظيرة للبقر،
ومخزناً للغلال، وآخر للخشب والفحم. ثم تأتى الى الجهة البحرية فتجد
المنزل، وهذه الكامة عند الدائيريين رنة موسيقية. فأولئك القوم
لا يكادون ينفقون شيئاً على ملابسهم أو ملامهم، ولكنهم يبذلون
بسخاء فى سبيل المنزل: تأثيثه وتجميله. ومع توافر غرف النوم، فإن
الدائيريين مولعون بالسرير المعلق بين الاشجار، ينام عليه متى سمحت
الاحوال الجوية، ومع وجود غرفة الاستقبال، فانه يؤثر قضاء معظم أوقاته
مع أفراد أسرته فى المطبخ وغرفة المائدة.

وغرفة المائدة تحفة بديعة — مائدة مستطيلة، يجلس اليها السادة
والخدم معاً على مقاعد خشبية طويلة. ويغطى جزءاً من جدران الغرفة
زخرفة خشبية زينت بالالوان الصفراء والزرقاء والخضراء والحمراء،
وصفت فوق رفوفها أطباق من النحاس المصقول للزينة، وتناثر فى أركانها
شئ من الأثاث القديم. هنا يحلو الحديث، ويحمي وطيس الجدل فى

شتى الموضوعات . والفلاح الدانيمركى ملء بالأخبار العالمية ، الاقتصادية منها ، والعلمية والسياسية ، إلما لا يكاد ينزعه فيه فلاح آخر فى العالم . وأذكر أن صديقاً سويسرياً فى جامعة كوبنهاجن أفضى إلى بما أدهشه من انتشار الكتب والمجلات الراقية ، بين فلاحى البلاد وعمّالها انتشاراً لم يرَ ما يقرب منه فى بلاده ، رغم أن سويسرا من أرقى بلدان العالم . وقد شهد بهذه الظاهرة الكثيرون من كتاب الانجليز .

والمنزل منار بالكهرباء ، وبه عادة جهاز لاسلكى (إذ بين كل أربع أسر ثلاث أسر يقتنون جهازاً) وتليفوناً فى كثير من الأحيان . وفى المساء يجلس افراد الأسرة حلقات أمام المواعيد ، مع عدد ليس بقليل من الزائرين . فعلى مقربة الابن الأكبر ، وهو متزوج ، ولكنه يكثر من التردد مع زوجته إلى منزله الاصلى لتجاذب أطراف الاحاديث . وهذه المرأة « الحلابة » الأجيعة ، تأتى من طرف القرية النائية لتزور هذه الأسرة . وهناك يجلس فلاح أجير طاعن فى السن ، يقص على أفراد الأسرة وزايرهم ، كيف نال الجائزة الأولى فى زراعة الحنطة ، ويخرج من جيبه آخر « مدالية » منح إياها . وهذه الخادمة الجالسة بجانب البنت الوسطى ، التى لم تتزوج بعد ، تعامل معاملة البنت سواء بسواء ، فى طعامها وشرابها ونومها وملابسها وأوقات الفراغ كيف يقضيها سكان الريف ؟ جماعات للرياضة البدنية ، جماعات للسباحة ، جماعات للموسيقى ، فرق الصور المتحركة المتنقلة . هذه وغيرها ، المنشآت العامة التى يشترك فيها الرجال والنساء على السواء . أما انتشار هذه فى المنازل بطريقة خاصة ، فحدث عنه ولا حرج . وفضلاً عن

ذلك فان أوقات الفراغ يستثمرها السكان في تغذية اذهانهم بالثقافة العامة. وهنا تتنافس المكتبة المحلية ومدرسة القرية مع دور الاجتماعات. وهذه الدور بنايات بسيطة يختلف اليها سكان الريف لسماع المحاضرات، وإقامة حفلات السمر والرقص، وتناول القهوة أو الجعة والحلوى، وسكان الدانميرك عامة شديدي الميل الى المحاضرات. وقد علمنا من زيارة المدارس الشعبية أن جرتوج، زعيم نهضتها، كان يعلق أهمية كبرى على المحاضرات، وأن هذه المدارس لا تزال تؤله الكلمة المسموعة، وتضعها في مستوى أرقى بكثير من الكلمة المقروءة. وقد قيل أن جرتوج علم الدانميركيين كيف يستمعون، كما علم رسكن (Ruskin) الانجليز كيف يشاهدون. وتذكرني هذه الظاهرة بالألمان، فانهم أشد الناس ولوعاً بالخطب والمحاضرات. فاذا كان هناك بابان، كتب على أحدهما «هنا الجنة»، وكتب على الآخر «هنا محاضرة عن الجنة» فان الجمهور يندفع بشدة نحو الباب الثاني دون الأول.

أما المدرسة فتقيم محاضرات وحفلات للسمر أيضاً، ولكنها تمتاز عن منازل الاجتماع بشيء آخر، وهو أن معلم المدرسة القروية ونجار القرية ومساعداه، يجتمعون في المدرسة مرتين كل أسبوع بين الساعة السابعة والساعة العاشرة مساءً، لتعليم من أراد من شبان القرية وشاباتهن صناعة الأثاث، من كراس وسلال وفرش وصوان، وأطر الصور، وتجليد الكتب، علاوة على دروس عامية. ولا يكلف أحد بدفع أجور عن هذه المزايا، وإنما يكلف فقط أثمان المواد التي يستهلكها في صناعة هذه الاشياء.

الفصل الرابع

الجماعات التعاونية

أن الرخاء الذي ينعم فيه الفلاح الدانيمركي ، والنجاح الذي يلاقى في تحويل تربة أرضه الى ذهب إبريز ، يعزى الى انتشار الجماعات التعاونية ، انتشاراً يكاد يكون شطراً من حياتهم اليومية كالخبز والماء ، حتى قيل عن دانيمركة إنها مملكة الفلاح التعاونية . ان عدد الفلاحين (اى الذين يمتلكون ارضاً زراعية) يبلغ ٢٠٥ ألف ، ومن هؤلاء ١٩٠ ألفاً اعضاء في جماعة تعاونية ، واحدة او اكثر . وقد امتدت حركة التعاون في السنوات الأخيرة الى العمال في الدوائر الصناعية . ولم تكن هذه النهضة يوماً ما نتيجة لجهود حكومية ، ولكنها ثمرة التربية والتعليم بين البالغين (adult education) ، وعلى الأخص المدارس الثانوية الشعبية ، ذلك الارث الصالح الذي خلفه الأسقف الشاعر العظيم جرنتبج (Grundtvig) في اواسط القرن التاسع عشر . وطالما تساءل الكثيرون عن القوة الكامنة التي تبعث بذلك الجيش الجرّار من السكان — من ربع الى ثلث عدد سكان الريف ، رجالاً ونساءً — الى تلك المدارس ، وهم في عنفوان شبابهم . وما الذي يدفعهم الى مكابدة نفقاتها من تلقاء ذواتهم ،

وهم يعلمون أنهم لا يمنحون شهادة أو درجة عامية ، أو يمنحون نفعاً مادياً ؟ وما الذى يحدوهم إلى طلب العلم لذاته ؟ الاجابة عن هذه الاسئلة موكولة إلى دراسة عوامل شتى ، قومية ، وسياسية ، ودينية ، وتقليدية . بيد أننا سنرى أنه في مقدمة هذه العوامل خُلِقُ الشعب ، ورسوخ قدمه في مبادئ الديمقراطية الحق ، وأثر المناخ والبيئة في تكوين هذا الخلق وأكبر العوامل التى ساعدت الفلاح على النهوض ، بعد الجماعات التعاونية ، التسليف العقارى . فهناك جماعات كثيرة لتوزيع القروض لصغار الفلاحين والشبان الذين يرغبون في بدء حياتهم الزراعية ، بشراء الاراضى وزرعها بأنفسهم مستقلين عن ذويهم . كما ان الحكومة تخصص من ميزانيتها مبلغاً طائلاً لهذه القروض ، ويشترط في المقرض ان يكون من رعايا دانيمركة ، وعمره من ٢٥ الى ٥٠ سنة ، وان يكون قد أكل خبزه من عرق جبينه في الزراعة مدة أربعة أعوام على الأقل ، بعد سن السابعة عشرة من عمره ، وأن يقدم شهادة من مجلس الناحية (المركز) وشخصين مسئولين يعرفونه جيداً ، يذكر فيها أنه محب للعمل ، متصف بالآمانه والشرف ، قادر على إدارة الأعمال الزراعية ، وأن يدفع جزءاً من عشرة أجزاء من ثمن الأرض التى يريد شراءها ، مع ما تحتاج إليه من المباني والمواشى ، وأخيراً ألا يكون صاحب عقار من الأصل . وقد امتدت هذه المزايا إلى النساء غير المتزوجات منذ سنة ١٩٠٤ . وبلغت القروض المالية التى منحتها الحكومة فى سنة ١٩٣٢ سبعة ملايين كرون ، ومتوسط القرض للفرد الواحد ١٥ ألف كرون (نحو ٦٦٠ جنيهًا مصرياً) . وهناك

وسائل أخرى لاعانة صغار الفلاحين بمثل هذه القروض، يطول المقام لذكرها، غير أننا نذكر من قبيل المثل حالتين يستطيع أن يفهم منهما القارىء كيف يتسنى لفرد من الأفراد أن يبدأ حياته الزراعية. وقد استعرنا هذين المثالين من حديث لمدير الكلية الشعبية فى السنيور، وقد كانت من الأماكن التى أتىح لنا زيارتها:

فى سنة ١٩٢٢ اشترى رجل ١٥ فداناً، وقد كان ثمن الأرض فى ذلك الحين، كما فى مصر، عالياً جداً، وزود الأرض بما تحتاج إليه من الماشية، وأقام عليها ما تحتاج اليه من المباني، وقد كلفه ذلك كله نحو ١٢٨٠ جنيهاً بالعملة المصرية، منحت له الدولة منها قرضاً قدره ٧٩٢ جنيهاً، ودفع هو ما ادخره من المال وقدره ٧٩ جنيهاً تقريباً، أما الباقى فقد اقترضه من جماعة من جماعات التسليف الزراعى السابقة الذكر. والآن يدفع هذا الشاب كل عام نحو ٣١ جنيهاً للحكومة بصفة أرباح. أما القرض الثانى فقد استطاع تسديده بعد سنوات قليلة. وقد كان معظم دخله من ست بقرات، دراً كل منها فى العام الواحد من ٣٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ كيلو جرام من اللبن، ونسبة الزبدة فى هذا اللبن ٣٦٪. ومما يدل على جودة الألبان هناك، وعلى سلالة الابقار الممتازة، أنه فى سنة ١٩٣٧ كان متوسط مقدار اللبن للبقرة الواحدة فى العام ٣٣٠٠ كيلو جرام، ومتوسط الزبدة ١٤٠ كيلو جراماً.

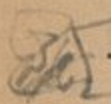
أما الحالة الثانية فهى لفلاح تجاوز مزرعته مزرعة زميله فى الشمال السابق. فى سنة ١٩٢٢ اشترى ١١ فداناً، كلفته بالأبنية والأثاث والماشية ١٠١٢ جنيهاً بالعملة المصرية، اقترض منها ٧٩٢ جنيهاً، ودفع هو ٢٢٠

جنيهاً ، من مبلغ كانت زوجته قد ادخرته . وقد كانت يحجى ثلث أيراده السنوى من فدان ونصف فدان من هذه الأرض ، زرعها حديقة بلغ صافي أرباحها السنوية ٢٧ جنيهاً .

ويتبين لنا من هذين المثالين أن القروض المالية التي تمنحها الحكومة ، وجماعات التسليف العقارى ، مضافاً إليها حكمة الفلاح الدائمى وذكاؤه ، هي التى تخلق صغار الزراعين من العدم ، وتمهد لهم السبيل لاقتناء الأرض وزرعها ، وتشيد المنزل ، ووضع الحجر الأول لأساس الأسرة . ولا غرابة إذا علمنا أن « الفلاح المستقل » كما يسمونه هناك ، أو الزارع الصغير ، هو الذى يقرر سياسة الدولة فيما يختص بالتشريع الزراعى . ولم تبلغ البلاد هذه المنزلة بالثورة ، ولكن بالتؤدة والفتنة وسداد الرأى ، فى خلال المئة والخمسين سنة الماضية ، أى منذ أن تحرر الفلاح من جور النظام الاقطاعى . ومن غريب ما يذكر أن جميع الأحزاب السياسية التى سبقت الإشارة إليها تدافع — بغير استثناء — عن صغار الزراعين (وفقراء العمال فى الدوائر الصناعية) .

وعبارة «صغار الزراعين» تسمية نسبية ، تطلق على من يمتلك أقل من ١٠ هكتارات أى ٣٧ فداناً . ومما يدل على رخاء هؤلاء ، إذا قيسوا بأمتالهم فى بلدان أخرى كمصر مثلاً ، أن ربع المساحة المنزرعة فى أيديهم ، وعددهم ١٣٥ ألفاً . ومن المشاهد هناك أن المزارع الصغيرة التى يملكها هؤلاء أكثر إنتاجاً وربحاً من المزارع الكبيرة . ويعزى هذا إلى عناية الفلاحين بأرضهم وحاجة صغارهم إلى مضاعفة إيراداتهم ، وميل الفلاح الدائمى

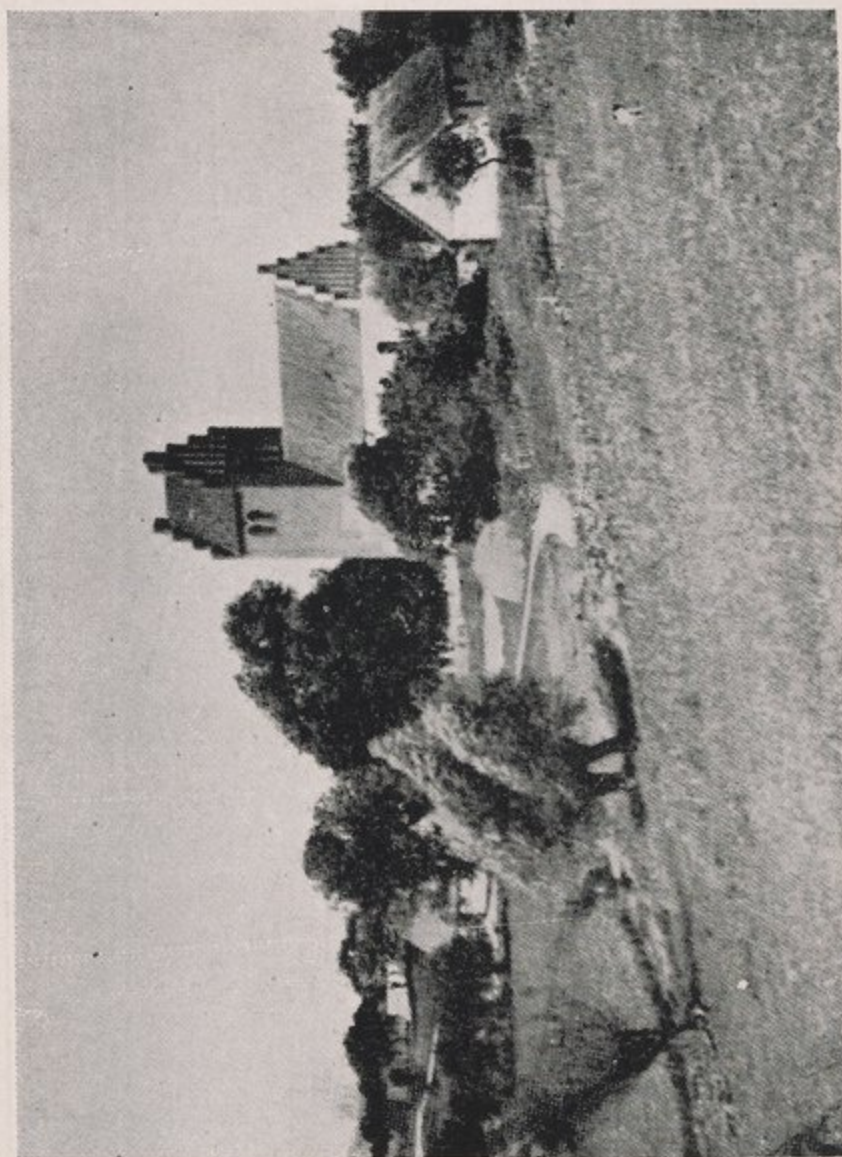
بطبيعته إلى العمل ، وشغفه بالزراعة . وتدل الاحصاءات على أن نحو ٦٠ ٪ من العمل الزراعى يقوم به أصحاب المزارع أنفسهم ، بمساعدة أزواجهم وأبنائهم وبناتهم ، وأن بين نصف مليون نفس من المشتغلين بالزراعة ، لا يوجد سوى ٣٥ ألفاً من العمال المستأجرين ، وهؤلاء يعملون كأن الأرض ملك لهم ، حباً في الخبرة الزراعية ، وطمعاً في أن يكونوا ملاكاً في المستقبل

ويعتقد أولو الأمر أن تشجيع صغار الزارعين بكل وسيلة مستطاعة ، يعود على الأمة جمعاء بمنافع أدبية عظيمة ، بجانب المنافع المادية .  منها أن حياة الريف تتمشى مع حسن الصحة وقوة الأبدان ، وأنها تدعو إلى تقوية الأسرة ، إذ أن الأطفال عادة يشربون مولعين بالزراعة التي اتخذها الوالد مهنة له ، محاطين برعايته وإرشاده . وقد فطنت الحكومة لأهمية الزارع الصغير ، وأثره في حياة الأمة منذ عهد طويل ، فقد شرعت منذ سنة ١٨٧٣ تمنح شهادات الجدارة لكل من أجاد في زراعة أرضه ، وشرعت منذ سنة ١٨٩٠ في دعوة صغار الزارعين إلى رحلات مجانية على جميع خطوط السكك الحديدية لزيارة المزارع التي أفلاح زملائهم في زراعتها ، في طول البلاد وعرضها . وفوق ذلك فإن الدولة تمنح إعانات مالية للفصول الليلية التي يؤسسها الأفراد والجماعات لترقية الفلاح ، والمدارس الثانوية الشعبية ، وأسست جماعات تعاونية لشراء الآلات التي يحتاج إليها صغار الزارعين

قبل سنة ١٨٨٠ كانت جماعات التعاون لمستخرجات الألبان ، الزبدة والجبنة ، مقصورة على أصحاب المزارع الواسعة ، ولم يكن في مقدور صغار الزارعين أن ينتفعوا بأسواق إنجلترا ، فيسدّون حاجتها من الزبدة. غير أنه في ذلك العام اخترع المهندس الدانميركي نيلسون (Nielson) آلة لاستخراج الزبدة من اللبن ، فأخذ متوسطو الزراع وصغارهم في تأسيس جماعات التعاون ، فانتشرت هذه الجماعات بسرعة البرق ، وقد كان للملكية الزراعية الملكية (تأسست سنة ١٨٥٨) الفضل في ذلك ، فقد نبغ منها أساتذة فطاحل ، أخذوا في نشر الدعوة بين السكان بحماسة معدومة النظير ، وعاموا الفلاحين الطرق العلمية لإطعام الماشية ، وصناعة مستخرجات الألبان . وفضلاً عن ذلك فإن الجمعية الزراعية الملكية (تأسست سنة ١٧٦٩) كان قد مضى عليها مئة سنة تجاهد في تحسين سلالات الماشية ، وإنشاء الجمعيات الزراعية المحلية ، ونقل ما ينشر في المجلات الزراعية العلمية في اميركا وسويسرا وغيرها ، ليكون في متناول الفلاحين . غير أن أول جماعة تعاونية لمستخرجات الألبان بالمعنى الصحيح لم تنشأ قبل سنة ١٨٨٢ ، أي بعد اختراع الآلة المومأ إليها بعامين . ففي شتاء ذلك العام نزل شاب في أحد الفنادق القديمة على الشاطئ الغربي من شبه جزيرة جوتلند ، ووزع أوراقاً على صغار الفلاحين ، دعاهم فيها الى جمعية عمومية ، شرح لهم فيها معنى التعاون ، وكيف يمكن كل منهم أن يصنع الزبدة بإرشاد خبير تعينه الجمعية ، ثم ترسل من شتى المزارع إلى سوق



تبين هذه الخريطة توزيع مصانع الألبان التعاونية
في دانيمركة وتمثل كل نقطة في الرسم مصنعاً



مدخل قرية دانيمركة

رئيسي ، ومن هذه السوق تبعث بالجملة إلى إنجلترا وغيرها من الأسواق الأجنبية. ولم يوافق الفلاحون على هذا الرأي تماماً ، ف عقدوا جلسة أخرى طويلة ، تقرر فيها ألا يصنع الزارعون الزبدة ، وإنما يبعثون باللبن كل صباح إلى مصنع تنشئه الجماعة التعاونية ، ويتولى المصنع تصدير الزبدة والجبنة ، وتوزع صافي الأرباح على أصحابها . ونيط بخمسة من الحاضرين وضع الخطة اللازمة ، وقانون الجماعة ، فمهر هؤلاء ما بقي من ساعات الليل ، ولم تكد تدق الساعة الخامسة ، حتى فرغوا من مهمتهم . ولم تمض أيام حتى بدأ المصنع ، وأصبح لكل عضو فيه حق التصويت ، بغير مراعاة عدد الأبقار التي يمتلك

لم يمض زمن يذكر حتى انتشرت الفكرة في كل مكان ، وأصبح معلم القرية ، وقسيسها . وعاملها ، وفلاحها ، وسائر سكانها تقرّيباً ، أعضاء في تلك الجماعات ، وأصبحت العربية التي تقف أمام المنازل في الصباح المبكر لجمع الألبان ، من المناظر المألوفة . وكان الفلاحون في بادئ الأمر يأخذون الأرباح بنسبة وزن الألبان التي تدرها أبقارهم (بعد أخذ ما يحفظونه لاستهلاكهم اليومي) ، غير أن هذا النظام لم يعد يفي بالغرض ، فقسمت الأرباح بنسبة الزبدة في اللبن ، لا بنسبة وزن اللبن . وحسبنا أن نقول أنه في عام واحد (١٨٨٧ - ١٨٨٨) أنشئت ٣٥٠ جماعة . ولم تقابل الأمة هذه الحركة بحماسة تذكر ، فكبار الزارعين لم يرمقوها إلا بمزيج من الفتور والكراهية ، أما الحكومة والمنشآت العامة ، فلم تعرها شيئاً

من عنايتها. غير أن البلاد لم تعدم شباناً أذكياً، أتموا دروسهم في المدارس الثانوية الشعبية، أو الكلية الزراعية الملكية في كوبنهاغن، ابتاعوا عدداً قليلاً من الأفدنة، وأنشأوا فصولاً زراعية لصغار الزارعين، ونشروا الدعوة في كل مكان، حتى انتشرت الفكرة كالموجة من شاطئ إلى شاطئ، ولم تأت سنة ١٩٠٠ حتى أصبح عدد الجماعات التعاونية لاستخراجات الألبان ثلثي ما هي عليه اليوم. وقد كان مجموع مصانع هذه المستخرجات في دانيمرك كلها ١٧٤٠ بحسب احصائية سنة ١٩٣٤، ومن هذا العدد ١٤١١ مصنعاً للجماعات التعاونية. ومن غريب هذه الجماعات أن عدداً من موظفيها يتطوع للخدمة بغير مرتب، وهؤلاء هم الذين يقررون أتعاب المدير ومعاونيه في المصنع، والمدير هذا هو أحد الأعضاء، وفي نظير خدمته تحتسب أتعابه كما يأتي: يمنح منزلاً له ولأسرته بغير أجر، ويمنح ما يحتاج اليه من الفحم للتدفئة، و٤ في الألف من مقدار اللبن جميعه. وليس أدل على عظمة هذه الحركة من الأرقام الآتية، المستخرجة ايضاً من إحصائية سنة ١٩٣٤: بلغ وزن جميع كميات اللبن المتداولة ١١ ألف مليون رطل، و ٨٠٠ مليون رطل، منها ٨٠٪ استخدمت لاستخراج الزبدة، و ٣٪ للجبنة، و ١/٢ في المائة لحفظه في العلب، و ٧٪ لاستهلاكه بواسطة اصحابه، و ١/٢ ٩٪ لبيعه للاستهلاك. وبلغت كميات الزبدة المستخرجة من مصانع الجماعات التعاونية ٩٤٪ من المجموع، وكان ٩٢٪ من فلاحي الدانيمرك أعضاء في جماعات تعاونية لاستخراجات الألبان

ولنبحث الان عن أثر هذه الجماعات : (١) لقد تمكن الزراع بوساطتها من الحصول على أرباح تتفق وجهودهم (٢) لقد تسنى لهم ضبط الكمية المعدة للإصدار ، وتأتى عن ذلك ضبط الاسعار (٣) نظراً لازدياد الايراد ، كثر عدد الماشية (٤) كثر عدد الجماعات التى تأخذ على عاتقها ترقية الماشية وتحسين سلالتها ، (٥) أصبحت الأبقار والخنازير والدجاج والخيول والأغنام ، مما تفخر به البلاد (٦) زادت كميات اللبن ونسبة الزبدة (٧) أصبحت الجماعات التعاونية لمستخرجات الألبان مركزاً اقتصادياً فى حياة الريف

ولم يحاول الفلاحون قبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر أن يحسنوا سلالات حيواناتهم ، ولكنهم منذ ذلك الحين أخذوا يبتدعون الوسائل ، حتى نجحوا فى بلوغ ضالتهم المنشودة . ومن هذه الوسائل (١) معارض الماشية ، وبلغ عددها ١١٥ كل عام . وتقوم الحكومة بتوزيع الجوائز من خزاناتها على الفائزين من أصحابها . ومنذ تأسيس الجماعات العلمية لفحص اللبن ، أصبحت الجوائز تمنح لنوع السلالة ، وتاريخ أسرة الماشية ، ومقدار اللبن والزبدة الذى تدره ، وليس للمنظر الخارجى وحده . (٢) حفظ سجلات منظمه للحيوانات والسلالات المنحدرة منها (١)

(١) هذه السجلات من أهم ما تعنى به دانيمركة ، عناية المانيا بسجلاتها التى تفرق فيها بين الجنس الآرى وغيره من الأجناس . وقد آلت هذه السجلات تدريجياً الى الجمعية الزراعية الملكية .

(٣) إقامة المسابقات ومنح الجوائز (هذا بخلاف المعارض) بين السلالات المختلفة ، وبين هذه وغيرها مما لا يعرف له سلالة (٤) تعيين الحكومة لخبراء زراعيين ، وعلماء المباحث الزراعية ، لمعاونة الفلاحين ، وإسداء النصيح لهم بغير مقابل (٥) إنشاء «أندية» العجول المخصصة للإنتاج . وقد لعبت دوراً هاماً في تحسين نسل الماشية منذ سنة ١٨٨٠ . وقد يُدخل القاريء العجب مثلي إذا علم أن عدد هذه الأندية اليوم يبلغ ١٤٠٠ ، وجميعها تمنحها الحكومة إعانات مالية ، ويبلغ عدد العجول الممتازة «الارستقراطية» (élite) التي اختبرت بعد درس سلالتها بدقه من السجلات الموماً إليها ، ألفاً وثمانمئة . وبهذه المناسبة نقول إن في بعض ولايات أميركا ينقل من ذكور البقر الممتازة بالطيارة من البرازيل لتلقيح الإناث تحسيناً للنسل .

سبقت الإشارة إلى الجماعات العلمية لفحص الالبان . ونظراً لأهميتها رأينا أن نقول شيئاً عنها : يعزى إنشاء هذه الجماعات الى سيدة فاضلة ، وهي زوجة مدير المحطة التجريبية الزراعية (الحكومية) على مقربة من مدرسة «اسكوف» الثانوية الشعبية ، من أشهر مدارس دانيمركة . فقد اقترحت هذه السيدة تعيين لجنة لدراسة هذا الموضوع ، فتألفت فعلاً من ١٣ عضواً ورئيس ، واصبحت بعد ذلك أول جماعة من هذا النوع . وكم كانت دهشة الناس عظيمة عندما وضع استاذ في مدرسة زراعية (١٨٩٦) ، ومن أعضاء هذه الجماعات ، تقريراً أبان فيه بأرقام ناطقة أن أكثر الأبقار نحافة وضعفاً ، يكلف الكيلوجرام من الزبدة المستخرجة من

لبنها نحو ٢٥ غرشاً بالعملة المصرية ، في حين أن أشد الأبقار وأسمنها يكافئ الكيلوجرام من الزبدة المستخرجة من لبنها نحو أربعة غروش وتسعة مليات . ولم يكذب ينتشر هذا التقرير ، حتى انتشرت معه هذه الجماعات . فقد بلغ عددها سنة ١٩٣٤ نحو ١٦٧٥ ، وبلغ عدد الأبقار الذي تفحص ألبانه بوساطة هذه الجماعات ٤٠٪ من المجموع . وقد ساعد في انتشارها نفوذ الفلاحين وكلمتهم المسموعة في مجلسي النواب والشيوخ ، ووضع تشريع سنة ١٩٠٢ تمنح بوساطته كل جماعة تؤسس طبقاً لقوانينها العامة ، إعانة مالية سنوية . وفي هذه القوانين يشترط في الموظف الذي يناط به فحص اللبن وتسجيله ، أن يكون قد أتم دروسه في مدرسة زراعية ، وتلقى بعد ذلك دراسة خاصة لمدة شهرين للتدريب على هذا العمل ، ويمنح مرتباً متواضعاً (لأنه يستطيع القيام بعمل آخر) يبلغ نحو أربعين جنيهاً مصرياً في العام ، علاوة على الطعام والسكن . ولم تقتصر فائدة هذه الجماعات على تحسين الماشية ، ولكنها كان لها الفضل الأكبر في دراسة عميقة في تغذية الحيوانات قام بها أعضاؤها ، حتى أصبح اسم البروفسور فردريكسن (Professor Lars Frederiksen) وقد توفي منذ سنوات ، معروفاً لدى السواد الأعظم من الزارعين الذين اتخذوا طريقته لتغذية الماشية نموذجاً ينسجون على منواله

قلنا أن أهم صادرات دانيمركة مستخرجات الألبان ، غير أن هناك نوعاً آخر من الصادرات يكاد ينازعها الأولوية ، ونعني بذلك لحم الخنزير

المجفف (bacon) . وقد لا يعلم الكثيرون أن النوع الثاني من الصادرات يتمشى في الواقع مع الأول ، إذ أن طعام الخنازير يتوافر كثيراً في مخلفات الألبان . وقد كانت هذه الحيوانات إلى أوائل القرن التاسع عشر شبه بريّة، تهيم على وجوهها في الغابات والأحراش، تبحث عما يسدّ رمقها مما تجد في طريقها . وليس هناك ما يدعو للأسهbab في الاطوار التي مرت بهذا المصدر من مصادر الثروة بين فلاحي تلك البلاد ، ولا للتحدث عن الجماعات التعاونية التي انشئت لاصداره الى الخارج ، فان الشبه بينه وبين مستخرجات الألبان يكاد يكون تاماً ، إذا استثنينا أمرين ، أولهما أن جماعة التعاون للحم المجفف هذا يزيد أعضاؤها من ٣٠ الى ٤٠ مرة عن أعضاء الجماعة التعاونية لمستخرجات الألبان ، نظراً لوفرة رؤوس الأموال التي تتطلبها واتساع المخازن التي يلزم توافرها ، فان الزبدة تصدر بعد خروجها من المصنع مباشرة ، في حين أن اللحم يبقى طويلاً بعد ذبح الحيوان ، الى أن يعد للتصدير .

وقد بلغ عدد هذه الجماعات في سنة ١٩٣٧ ، ٦١ جماعة ، وبلغ أعضاؤها ١٨٠١٩٢ وبلغ ثمن ما تصدره ٢٢ مليوناً و ٥٠٠ ألف جنيه بالعملة المصرية

ومن أكبر الجماعات التعاونية في دانيمرك جماعة المبيع بالجملة ومركزها الرئيسي في كوبنهاجن ، ولها مصانع للملابس ، والشكولاته ، والسجائر ، وأنواع الحلوى ، وكل ما يحتاج إليه الأهالي عادة ، ولها في جميع أنحاء الدانيمركة فروع يبلغ عددها ١٩٠٠ فرع بحسب احصاء سنة ١٩٣٧ ،

توزع سلعها على ٣٤٧ ألف أسرة . ولا يتسع المقام للكلام عن جماعات التعاون لبيع الماشية والبذور ، والسجاد ، والفحم ، والاسمنت ، والآلات الهندسية . وقد كان عدد جماعات السماد التعاونية منذ سنوات ١٣٥٣ ، وعدد أعضائها ٦٧ ألفاً . وليس هناك من شك في أن هذه الأرقام ، إذا لم تدل على شيء آخر ، فإنها تنبئ أن الفلاح الدانميركي يكاد يكون عضواً في كل جماعة تنشأ لتحسين حاله .

ولم يفت زارعى دانميركه أن ينشئوا جماعة تعاونية لجمع البيض وبيعه وتصديره ، ويعزى إنشاء هذه الجماعة إلى معامين من مدارس الأرياف وأحد الزعماء ، فقد كونوا حلقات سموها حلقات البيض ، وانضم إلى كل حلقة عدد من الزارعين ، وختمت كل بيضة برقين ، رقم يمثل الحلقة ، والرقم الثانى يمثل العضو الذى قدّمها . فإذا ما شك أحد ، دُعيت شكواه بالرقمين ، وأمكن العثور على صاحب البيضة المدعى عليها . وكانت عدد الحلقات في سنة ١٩٣٧ ، ٨٠٠ ، وعدد أعضائها ٤٥ ألفاً ، وعدد ما تداول من البيض نحو مليون وربع مليون جنيه مصرى

يؤخذ من إحصائية المعهد الدولى الزراعى ان دانميركه أصبحت منذ سنوات عدة تصدر ٣٠ ٪ من تجارة العالم فى الزبدة ، و ٥٠ ٪ من اللحم المجفف (bacon and ham) ، و ١٥ ٪ من البيض

ولا يمكن أن يقال إن الجماعات التعاونية قلبت نظام المجتمع في
دانميركة، فإن الأعمال الخاصة، وتجارة الأفراد لا تزال محترمة، مفتوحة
الأبواب، وهي السائدة في المدن، كما أن هذه الجماعات تؤثر أن تبقى
الأسواق حرة، حتى إذا ما دب الخلاف بين أعضائها لسبب ما، انفضت
بسلام، وسلك كل عضو الطريق الذي يرتاح إليه. بيد أن الحقيقة التي
لا يمكن إنكارها، هو أن الفلاح بلغت حياته من التنظيم ورسم الخطط،
ما يجعله يلجأ إلى جماعات التعاون في كل ما يحتاج إليه في حياته وكل ما تمتد
إليه. فإذا ما أراد أن يرهن عقاراً، فأمامه جماعة التعاون للرهون العقارية؛
وإذا ما أراد كهربية مزارعه؛ أو بيع لبنه أو خنازيره؛ فأمامه جماعات
التعاون لكل منها، وإذا ما أراد شراء الأثاث، أو البذور، أو الأسمدة
فأمامه الجماعات؛ وإذا أراد أن يؤمن على نفسه من المرض أو الموت،
فعليه بجماعات التعاون التي أنشئت لهذا الغرض. وإذا رجعنا إلى الثقة
من الواقفين على بواطن الأمور في دانميركة وسألناهم عن السر في نجاح
هذه الجماعات الباهر؛ قيل لنا في غير تردد أو ما يشتم منه رائحة الشك،
أن السر هو المدارس الثانوية الشعبية. وهذا عين ما شهد به الذين زاروا
دانميركة من كبار الأجانب وعلماء الاجتماع، وقد قال أحدهم مرة أن
هناك ارتباطاً لا سبيل إلى إنكاره بين الزبدة؛ ولحم الخنزير المجفف؛
والمدرسة الثانوية الشعبية.

ومن الغريب أن حركة التعاون هذه على اتساع نطاقها. إلى درجة
تكاد الحكومة بأسرها تتضاءل أمامها، من الغريب أنها لا تدخل في

المناهج التي يدرسها طلبة هذه المدارس الشعبية ، مما يدل على أن أثر هذه المدارس غير مباشر . كما سنرى في مدرسة هليرويد التي خصصنا لوصفها بعد زيارتها ودرس نظامها ، فصلاً كاملاً . وكيف يستهان بألوف من أبناء الفلاحين وبناتهم ، يلتحقون بالمدارس الزراعية والشعبية كل عام ؟ لقد بلغ عدد طلبة المدارس الثانوية الشعبية (بخلاف المدارس الزراعية) وحدها ، بحسب آخر أحصاء ٦٧٧٣ يتوزع آباءهم كالاتي : ٢٨٧٣ فلاحون متوسطون ، ٨٤٤ من صغار الزارعين ، ٤٤٧ من العمال ، ٧١٠ من الصناع القرويين ، و ١٨٩٩ من شتى المهن والصناعات

إن الهدف الذي توجه إليه هذه المدارس جهودها ، قبل كل شيء ، هو إيقاظ الضمائر ، وإذكاء روح الواجب في نفوس الطلبة ، حتى يشعروا بالمسئولية نحو الطائفة أو الواحدة من الجماعة التي إليها ينتمون . وفوق ذلك فإن هذه المدارس تربي طلبتها على الثقة بالغير . والرغبة في التضحية خدمة للصالح العام . ويكاد لا يوجد في دانيمركة مشغل بالزراعة ، لم يكن له اتصال بالمدارس الثانوية الشعبية . فمن نظام هذه المدارس دعوة جميع فلاحى الناحية من القرى المجاورة - وجميع هذه المدارس في القرى لا في المدن - إلى حفلات واجتماعات في مناسبات شتى ، سواء أكانوا يوماً من طلبتها . أم لم يكونوا

الفصل الخامس

زعماء الاصطراع الاجتماعي

لكل نهضة اجتماعية زعيمها، فقد علمنا التاريخ أن النهضات تسبقها الأزمات فالتكاد يدلهم سماؤها، ويشدد ظلامها؛ حتى يبرز فجأة من وراء الأفق نجم يتألق؛ فيبشّر الظلام في جوّ الزوابع والأعاصير والرعود والبروق؛ وما تلبث أن تهدأ العاصفة وتستقر الأمور حتى تأخذ هذه النهضة مسيرها؛ وقة النجاح رائدها. ولسنا نستطيع أن نجد في طيات التاريخ حالة واحدة، بغير شخصية فذة، قدّت إرادة صاحبها من الجلود، وتكونت ذاته من عناصر العبقرية، في ناحية أو أكثر من نواحي الحياة.

وما هذه الشخصية التي أردنا أن نستدرج القارئ إليها، سوى جرنّوج^(١)، مؤسس النهضة الاجتماعية عامة، والمدارس الثانوية الشعبية خاصة. ونقول النهضة الاجتماعية لأن أكثر الزعماء في تلك البلاد بعد سنة ١٨٦٤، من رجال الأعمال، والفنون، والتربية، كانوا من تلاميذ

جرتوج ، والمعجبين بمبادئه. ومن بين هؤلاء نذكر وزير المعارف الحالي ^(١) ، صاحب الحركة الواسعة النطاق ، لتوحيد الثقافة العامة للبالغين لا في دانميركة وحدها ، بل في جميع بلدان اسكندناوة .

ولد جرتوج سنة ١٧٨٣ وتوفي سنة ١٨٧٢ ، وكان معاصراً لتلك الأزمة العصيبة والفترة السوداء ، التي تلت هزيمة دانميركة الحربية أمام جيوش الألمان ، واندحارها الأدبي والمادي ، واستيلاء الألمان على أراضيها في سلسويج (selesvig) . وقد عاش في بيئة دينية ، ولكن تفكيره لم يكن طائفيًا ، ولم تكن مسيحيته غير عالمية . فقد كان يعتقد أن الأديان لا فضل لها ، إذا لم تكن خادمة أمينية للإنسانية وإصلاح حالها ، ووضع الناس جميعاً بنض النظر عن كل فروق أخرى ، في مصاف الإخوة في هذه الإنسانية . ولا غرابة إذا رأيناه يخبر الحياة من جميع وجوهها ، ويتبع الحوادث التاريخية بعين تقدر شراً ، ونفس تقطر حباً بالإنسانية ، ولا بدع إذا رأيناه يأخذ في كل ناحية من نواحي الحياة الدانميركية بنصيب وافر ، فقد كان عضواً في البرلمان ، والجمعية العمومية ، وحارب القوانين التي كانت تجعل نصاب الثروة أساساً لحق التصويت ، وألغى بفوقه الاقتراع العسكري الجبري ، وطالب بحق كل فلاح أن يكون له من الأرض نصيب كاف يعيش عليه ، ونادى بترقية الروح الديمقراطية التي يكون فيها « الأغنياء المسرفون في الغنى أقلية قليلة جداً ، وأن يكون الفقراء

المسرفون في الفقر أقل من هذه الأقلية ، وحارب في سبيل الحرية الدينية ، والتسامح ، وكان كلما تقدم في السن ، وزاد نفوذه وهيبته وجلاله ، اشتد احترام الناس له ، وتعمق هو في مبادئه الروحية ، واشتد حبه للإنسانية فأصبح اسم الأسقف جرتوج ناراً على علم ، وقد لقبه الألمان بـ « بنى الشمال » .

وآراؤه في التربية ، منذ أن بلغ أشده ، لم تكن الا ثورة على المدارس التقليدية ، وانتصاراً للتربية الحديثة ، التي لم يسمع عنها شيئاً في ذلك الحين . فكثيراً ما كان ينظر إلى الوراثة ويعيد إلى الذاكرة حياة الطفولة في المدرسة القروية التي كان « يُسجن » فيها ، فيرميها بالسنة حداد ، ويهجوها بما يهجو أنصار المدرسة الحديثة اليوم زملاءهم من أنصار المدرسة التقليدية . كان يعتقد أن من حقوق الطفل ، قبل كل شيء آخر ، أن يكون طفلاً ، وأن يعيش كذلك ، وأن تكون التربية ملائمة لحاجاته ، وتتفق وإيائها . وقد أنحى باللائمة على المدرسة التي قضى فيها شبابه ، من سن المراهقة فما فوق . أما المدرسة الثانوية فقد سماها « المدرسة السوداء » لأن ما حُشِيَ به رأسه فيها من اللاتينية ، والإغريقية ، والرياضة ، أخذت فيه جذوة الشباب ، وقتلت مواهبه الروحية ، وجعلته خاملاً ، متكبراً ، وطالما نعي في قصائده الرنات التي لم يكف عن نظمها إلى يوم وفاته : أيام شبابه كقوله « وليس من الحكمة في شيء أن نلقى بالأطفال وهم بعد في سن الحلم ، في غياهب تلك السجون ، بين الكتاب ، والبراعة والمداد والقرطاس ، بعيداً عن الحياة العملية ، بل من الحنكة أن نعلم أن أحسن المدارس لتلك

السنوات الخطيرة في حياة الشباب ونموه ، هي المصانع التي يخرج منها الصانع الحاذق ، والمزارع التي يخرج منها الفلاح الماهر . وبعد أن تلقى علومه في جامعة كوبنهاجن ، عين مربيًا خاصًا في أسرة في إحدى الجزر الدانيمركية (١٨٠٥) ، وهناك وقع فريسة الغرام لأول مرة ، وقد كان على الدوام كثير التهمك به ، فقد أحب لأول نظرة امرأة ، بلغ شغفه بها أقصى ما يستطيع بشر أن يتحملة ، ولكنه لم يلبث طويلاً ، حتى أدرك أنه يتطلب في الماء جذوة نار ، إذ كانت المرأة زوجاً لرجل آخر ، وما كاد يعلم ذلك حتى نزل عليه الخبر كالصاعقة ، فعقد النية على إخضاع وجدانه للمنطق ، فعكف على العمل ليل نهار ، ودفن نفسه أعواماً بين أكداس الكتب ، وعودها الكتابة والقراءة في كل ساعة من ساعات الليل والنهار ، عدا فترات الأكل ، ولحظات كان يختلسها فينام على ديوان بجانب مكتبه . وقد عنّ له في تلك السنوات أن يتعمق في دراسة فلاسفة الألمان المحدثين ، خصوصاً نخت (Fichte) وشلنج (Schelling) ويتغنى بشعر جوته وشرلر ، وروايات شكسبير .

وقد لقي في آراء روسو في التربية ، وخصوصاً الريف والحرية ، ما يطابق ميوله وميول الدانيمركيين عامة ، ولكنه لم يأخذ بآراء روسو جميعها ، فقد خالفه مثلاً فيما كان يخشاه من بطش المدنية وأثرها السيء في الإنسان . ولا شك أنه تأثر بآراء نخت (Fichte) في «مدرسة الشباب» وجو الحرية التي يسودها ، فيتزعزع الطالب فيها ، ولا يلبث أن ينضج مشبعًا بالحرية الفردية الأدبية من ناحية ، والواجب والمسئولية نحو

إخوانه من ناحية أخرى ، ونادى جرننتوج بوجوب تعليم أبناء الأمة حتى يكون لهم نصيب في التشريع ، ولكنه كان يعتقد أن مدارس الأطفال ليست الوسيلة لبلوغ هذا الغرض ، فإن الطفل قبل سن الثامنة عشرة لا يستطيع تفهم الحياة بهذا القدر ، ولذا طالب الأمة بإنشاء مدارس البالغين ، ومن أقواله في التنديد بحشو أدمغة الأطفال بما لا يفهمون بدلا من العناية بنمو أبدانهم ، قوله « ما أشبه الكتب والمعارف والعلوم بالأموال ، وإن يكن كاتبوها الملائكة أنفسهم ، إذا لم تجد من حياة قارئها آذانا صاغية ، وما لم تكشف له الحياة عن القناع ، وتبدى له أسرارها ، فيدرك ما يرمى إليه الكاتب ، ويحس برغبة محققة صادقة في الاستنارة والمعرفة »

وكان من رأيه إذاً أن يعنى بتنمية قوى الطفل البدنية بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة من عمره ، مع توجيهه توجيهاً خفيفاً إلى العمل الذي يعد نفسه إليه في المستقبل . أما بعد الثامنة عشرة فيكون النشء متأهبين للاستنارة ، والوقوف على أسرار الحياة الغامضة ، فهي الفترة من العمر التي تستيقظ فيها القوى العقلية الكامنة ، ويتساءل فيها الفتى والفتاة عن أغاـز الحياة ، وأكـثر مسائلها خطورة . فهناك المسائل الروحية الدينية العويصة ، وهناك الغرائز الجنسية ، وعلائق نصف الإنسانية بالنصف الآخر ، وهناك الوطن ، والأسرة ، والجمال والذوق السليم ، والمجتمع . هذه وغيرها لا يستطيع الطفل إدراكها في فترة الانتقال ، بعكس ما يليها

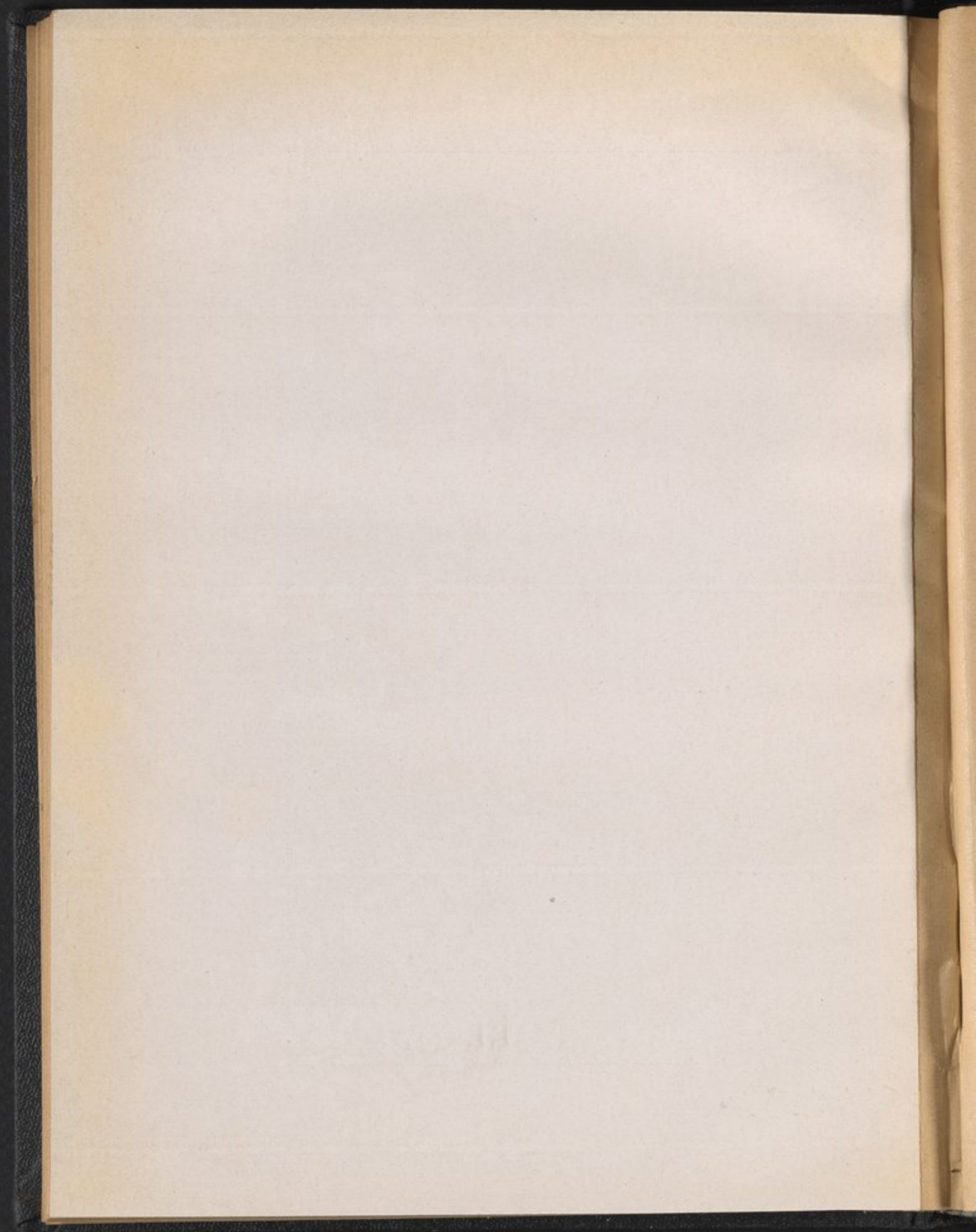
من دور النضج ، وامتلاء النفس بهذه المسائل . العظيمة الأهمية ، التي يحتم على المدارس الشعبية تبسيطها والإجابة عنها .

ولم يكن هناك معاهد للكبار ، قبل إنشاء المدارس الشعبية ، سوى الجامعة التي كان الغرض منها إعداد الموظفين . وهذا ما حدا زعيم النهضة الاجتماعية - جرتوج - أن يطالب بإنشاء هذه المدارس « للسواد الأعظم من أبناء الأمة وبناتها ، الذين لا يريدون (ولا يستطيعون) أن يكونوا موظفين ، وإنما يريدون أن يتأهبوا إلى ما لا بدّ لهم التأهب له وهو إطعام أنفسهم والموظفين معاً . وليس ثمة من يتصور - سوى الهمج والمستبدّين - أن المستأجرين ، وصغار الزراع ، والفلاحين ، والملاحين ، وصغار التجار - وهم نواة الأمة ، وجذور شجرتها الباسقة ، لا حاجة لهم إلى المعرفة ، فوق ما يعامونه عن المحراث والمصنع ، والسفينة ، والمخزن التجاري . ويصلح هذا النظام لكل أمة تدين بدين الاخاء والانسانية . ومن أكثر بلدان العالم صلاحية له ، اسكندناوة ، خصوصاً دانيمركة ، التي لا تزعمها قلاقل ، ولا يكدر صفاءها عواطف جامحة ، وإنما على النقيض من ذلك عرضة لبطش الأعداء بها ، اذا ما أهملت تنوير أهلها ، لما اشتهروا به من السذاجة ، والامعان في الهدوء وحب السلام . ثم نجده يتغلغل في قرارات التربية الحديثة وأعمق مبادئها ، فيقول :-

« وليس معنى التنوير أن ندخل في المنهاج اللاتينية ، كما في الجامعة . فالتنوير الحقيقي من هذه الناحية في اتقان لغة الآباء والأجداد ، فإن بها وحدها يستطيع أبناء الدانيمرك أن يقفوا على أحوال بلادهم ، ويتعرفوا

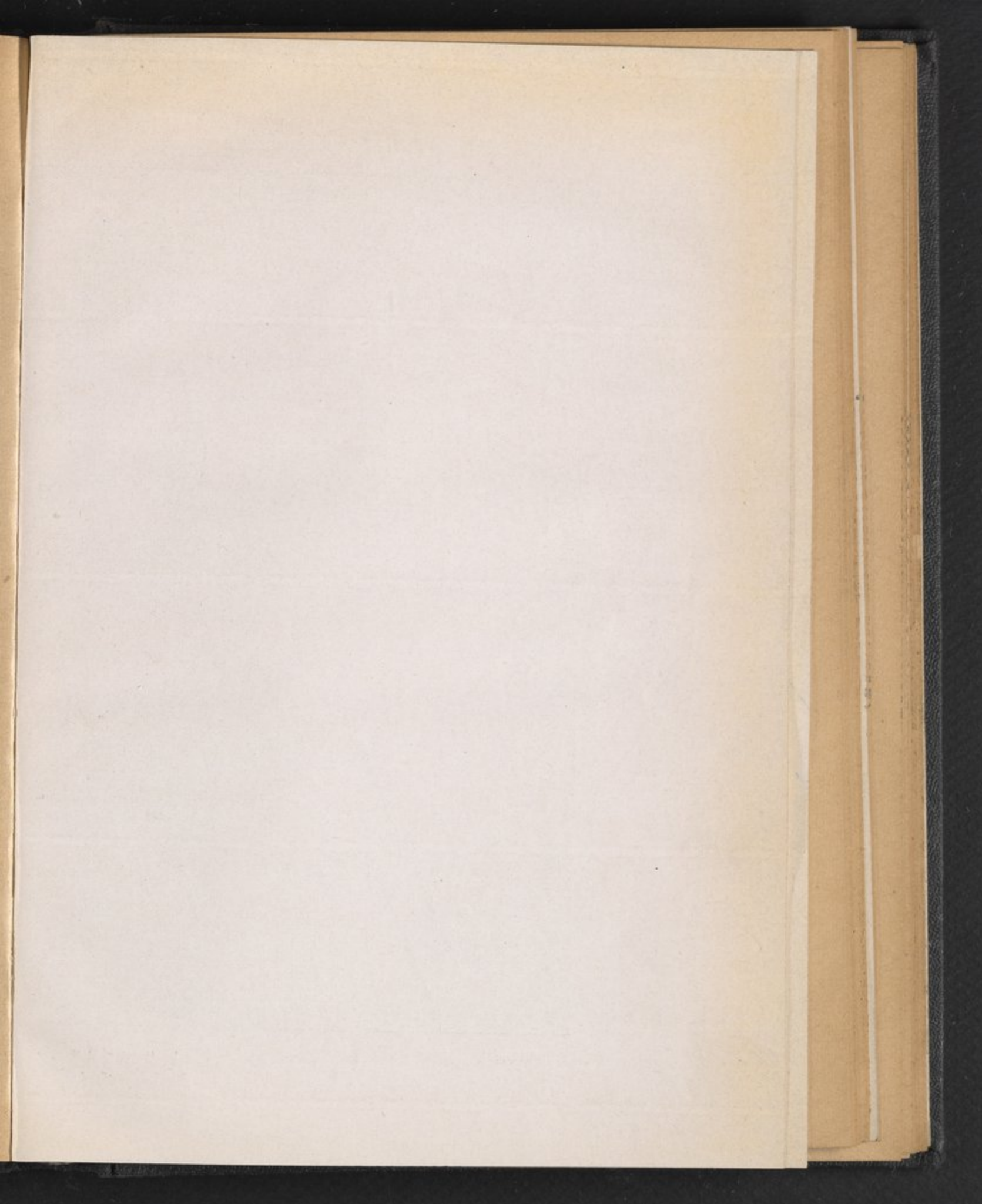
اليها تعرفاً دقيقاً ، ويتفهموا منشأها الاجتماعية وأطوارها التاريخية . ففي مقدمة واجبات النشء أن يعبروا عن آرائهم بلغة بلاذهم ، سليمة ، واضحة المعنى ، رائقة المبني ، وأن يأخذوا بناصية الأدب القومي الذي تتجلى فيه أنبل خلق الأمة ، وأشدّها سموّاً . ويلزم ألا تطالب المدارس الشعبية طلابها بتأدية امتحانات في المواد التي يتلقونها ، وإنما ينبغي أن تفتح أبوابها لكل رجل وامرأة من أبناء الأمة » وكان من رأيه أن تقتصر بلدان اسكندناوة الثلاث على جامعة واحدة لا غير ، يكون مركزها جوتنبرج في بلاد السويد ، وأن يؤمها كل من ينبغ في العلوم ويميل بطبيعته اليها ؛ ويستطيع القيام بمباحث علمية ينقطع اليها .

وعلى جرتوج أهمية كبرى على جعل مركز المدرسة الشعبية المزارع والحقول في صميم الريف ، وتوثيق الروابط بينها وبين الزراع وأصحاب المصانع ، والإكثار من الرحلات المنظمة ، حتى يعود الطلاب الى قراهم ولوعين بالأرض ، شغوفين بالريف يعملون فيه بقلوبهم قبل أيديهم . ويؤثر اتصال الطلاب بمعلميهم ومعلماتهم اتصالاً مباشراً بوساطة المحاضرات ، والألعاب ، ونواحي النشاط ، ولا يعلق أهمية كبيرة على الكتب ، لأنها في رأيه أصلح للجامعة منها للمدرسة الشعبية . وهذا ما يقوله في هذا الصدد « ما الكتب إلا صورة للحياة ، أما المحاضرة ، والخطبة التي توحى بها النفس النبيلة ، والمزاح المرح ، والعبارة القوية الخارجة من الأعماق — فكلها مظاهر مباشرة واتصال روحي » . وهذا ما يعني بتشبيهه الكتابة بالموت ، والكلام والحياة . وقد شاهدنا هذا المبدأ





منظر في ميدان عام في كوبنهاجن وترى البادية الى اليسار



مثلاً ومجسماً في المدارس الشعبية التي زرناها كما نرى في وصف مدرسة « هليرويد » (الفصل السادس) فان الاصغاء للمحاضرات ، والمناقشة ، والاتصال المباشر ، يستنفد معظم أوقاتهم ، في حين أن الكتب والمطالعة الفردية ، لا تستغرق منها إلا اليسير .

قلنا ان للمناقشة حظاً وافراً في المدارس الشعبية ، وهنا ننوه بمادة التاريخ بكل إجلال وتقدير . ينظر جرتنوج إلى هذه المادة كسيدة المواد جميعها (بعد لغة البلاد) ، لأنه يعتقد أن أعقق مسألة جديرة بالدرس هي مسألة الحياة ، وما التاريخ إلا قصة الحياة ، تبدو فيها الأطوار التي مرت بالسلالة الانسانية ، وتتمثل فيها أخطاء الانسان ونجاحه ، وهزيمته ونصره . ليس التاريخ كتلة من المعلومات عديمة الارتباط ، وانما هو ماء جار ، تتصل ذراته بعضها ببعض ، وحياة الانسان فيه كحياة الفرد ، تبدأ فيه الانسانية طفلاً ، فتشبه غلاماً ، فشاباً ، فرجلاً ، فكهنلاً ، فشيوخاً ، فهرماً . وقد شاهدت أيضاً هذا المبدأ جلياً في المدارس التي زرناها ، فقد لاحظت أن المعلم يبدأ بتدريس الديمقراطية والدكتاتوريات ، ثم يتقهقر بانتظام إلى الوراء إلى الحوادث التاريخية التي سبقتها . فيمر بجميع العصور التاريخية ، وما لا يسها من الحركات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية ، ويكاد يكون التاريخ بهذه الكيفية وحدة كاملة تبنى على أساسها أكثر المواد ، حتى الغناء والشعر والموسيقى . ومن المسائل التي أطنب جرتنوج في الكلام عنها الحياة الدينية ، وأهمية الموسيقى والغناء في

المدارس الشعبية ، والحياة الدينية في عرفه كما سبقت الإشارة ، أسمى العواطف التي تجرد صاحبها من الأنانية ، وتدفعه إلى التضحية وخدمة الغير ، والإخاء وحب الإنسانية .

لم نشأ أن نشغل أذهان القراء بحياة جرتوج الخاصة إلا ما تعلق فيها بالأصلاح الاجتماعي ، والمدارس الشعبية ، ونختم هذه الكلمة بعبارة اقتبسناها عنه ، تدل على تاريخه المملوء بالحوادث : « مات جرتوج في سن التسعين ، وتزوج ثلاث دفعات . ورزق من زوجته الثانية ابناً وهو في سن الحادية والسبعين ، ومن زوجته الثالثة بنتاً وهو في السابعة والسبعين . وقد أبقى عظته الأخيرة (وقد كان أسقفاً ، وهذا اللقب من ألقاب الشرف التي منحت الكنيسة إياه) قبل وفاته بيضعة أيام ، ونظم قصيدة شعرية قبل موته يوم واحد . وقد كان عنيداً — كسائر الزعماء — لا تكسر له شكيمة ، ففقد وظيفته الدينية إلى حين ، وجافاه أساتذة الجامعة وعدد كبير من رجال الأعمال ، ولكنه على مدى السنين كثر أصدقاؤه ، وأبرقت أساريه ، وأصبح في مقدمة من أنجبت البلاد ، حتى لقبه أكبر شعراء نروج بأعظم أبناء الشمال . »

وعلى رغم ما أسداه جرتوج من الخدمات إلى بلاده ، وعلى الاخص المدارس الشعبية ، فإن جهوده كادت تنحصر في فلسفة . وعقيدة ، ونظرية ، تاقت نفسه إلى تحقيقها . والأقوال شيء ، وإخراجها إلى حيز العمل شيء آخر . غير أن النظريات بغير استثناء مقدمة لجلال الأعمال ، وقلمنا نجد

في التاريخ فلسفة وتنفيذاً في آن واحد. وكان لا بد لتحقيق فلسفة جرنتوج من تجارب عدة . وأول مدرسة شعبية تجريبية انشئت سنة ١٨٤٤ في ردينج من أعمال سلسوج ، وهي المقاطعة التي سارها الألمان من الدانيمرك كما يذكر القارىء . غير أن أول مدرسة شعبية قاربت المثل الأعلى الذي كان ينشده جرنتوج ، هي مدرسة اسكوف (Askov) التي أنشئت بعد سنة ١٨٦٤ ، وهي إلى اليوم أكبر مدارس دانيمرك الشعبية ، وأبعدها شهرة . ومنذ ذلك الحين أخذ أولو الغيرة من أبناء تلك البلاد ، من أتباع فلسفة جرنتوج ينشئون المدارس على هذا النسق ولو أن هناك فروقاً بين كل مدرسة وأخرى ، مما يلائم حاجة الطائفة من الأمة ، التي لأجلها انشئت كل منها . ومهما يكن من شيء ، فإن جميع هذه المدارس تتفق في مبدأ واحد ، وهو تحقيق كلمة « شعبية » بالمعنى الذي كان يقصده زعيم الفكرة . فالشعب في نظره لم يكن مجرد مجموعة من الناس تصادف وجودها في مكان واحد ، خاضعة لحاكم واحد ، ولم يقصد بقوله « الشعبية » أن تكون الكلمة مناقضة « للارستقراطية » ، ولم يعن بها أن تكون ديمقراطية بالمعنى السياسى المتداول ، إنما كل ما قصده أن تكون مرادفة لمعنى « الزمالة الروحية » بين أناس ينحدرون من سلالة واحدة ، ويربطهم في الحياة غرض واحد ، وفكرة واحدة ، وأمان واحدة .

وقد قدر لهذه المدارس منذ نشأتها أن تقوم على اكتاف الشعب ، وكل ما فعلته الحكومة أنها استيقظت يوماً من سباتها ، ووجدت ذاتها أمام الأمر الواقع ، وهو إعانتها مالياً . وأول رجل قام باخراج فكرة جرنتوج

الى العمل ، ووضع مدارس دانيمركة الثانوية الشعبية على أساس عملي ،
هو كرسن كولد (Kold) ، (١٨١٦ - ١٨٧٠) ، وقد قيل أنه كان مزيحاً
من سقراط ، وبستالوزي ، وكان من صميم الشعب ، يستطيع أن يفهم
الجمهور ويخاطبهم باللغة التي يفهمون . وقد كان أبوه من صنّاع الأحذية ،
فأراد أن يكون إسكافياً ، ولكن أصابعه ويديه كانت من السماجة ، مما لم
يتفق مع أدوات الاسكافي ، وكان من فرط يأسسه منه ، وخيبة آماله فيه ،
أن بعث به الى مدرسة للمعلمين . وبعد أن تخرج فيها وزاول مهنة التعليم
رأى رؤساؤه أنه يميل الى الطريقة الفردية في التعليم (كبستالوزي) .
فاختلفوا معه ، وما كان منه الا انه هاجر الى سوريا ، والتحق باحدى
الرسالات هناك ، حيث اشتغل بالتعليم وتغليف الكتب . وهناك
لابس الناطقين بالضاد من أبناء العرب ، وتلقى درساً كان يجهله من قبل ،
وهو أن أبناء البشر من جميع السلالات سواء ، وأن الفروق إذا وجدت ،
فهي أقل بكثير مما يظن . ولما أن عاد الى بلاده أنشأ مدرسة شعبية على
حسابه ، من خمسين جنيتهاً كان قد ادخرها ، وسبعين جنيتهاً أخرى أعانه
بها جرتتوج

ولم يأخذ (كولد) بنصائح جرتتوج كلها . مثال ذلك انه آثر في بادئ
الأمر التاميد في سن الخامسة عشرة ، عليه في سن الثامنة عشرة ، لأن
الثاني في نظره لا يعنيه في الحياة سوى « غليون » التبغ ينفخ فيه . والفتاة
التي يهوى يتأبط ذراعها ، بيد أنه لم يكذب على نهاية العام الدراسي
حتى ندم على ما فعل ، فعاد الى فكرة جرتتوج وجعل الدراسة مقصورة

على الطلبة الذين تتفاوت أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين .
ومما يدل على شجاعة (كولد) انه قبل أن يؤسس مدرسته (سنة ١٨٥٠ في
قرية ريسلنج) بثّ دعوته بين فلاحي القرى المجاورة ، فلم يتقدم إليه إلا
طلب واحد ، ولكنه رغم ذلك ، سار في الطريق الذي رسمه ، ولم يلبث
طويلاً حتى استهلّ الدراسة بخمسة عشر طالباً . وكان أول من وضع نظام
الدراسة الحالي في المدارس الشعبية ، الذي بموجبه تخصص شهور الشتاء
الخمس من أول نوفمبر إلى آخر مارس (للرجال ، وشهور الصيف من ٢ مايو
إلى ٣٠ يولييه للنساء . وسبب هذه التفرقة ان الرجال لا يستطيعون
الدراسة صيفاً لتفرغهم لأعمال الزراعة في موسم الحصاد) وجميع المدارس
الشعبية تسير على هذا النظام اليوم سوى مدرسة اسكوف ، فإن التعليم
فيها مختلط بين الذكور والاناث .

وقضى كولد حياته بين الطلبة والمعامين ، وكان ينسى أحياناً مواعيد
الأكل فينصرف إلى العمل بغير استراحة ، وكان ينشئ المدارس الشعبية
أينما حلّ ، ويشترط في إنشائها قبل كل شيء ، ألا يكون هناك امتحانات
أو درجات . فعلت شكوى الفلاحين بدعوى أن خلو النظام من
« العلامات » والامتحانات ، يجعل التحصيل مستحيلاً ، والدراسة بغير
نتيجة أو ثمرة ، فكان يجيبهم بهذه العبارة الماثورة « إذا وضعتم في الأرض
أنايب لتصرف الماء ، فمن المحتم إيجاد « علامات » تدل على مكان
وجودها ، أما إذا « زرعتم قمحاً ، فانكم لا تحتاجون لمثل هذه العلامات ،
وانما تترثون إلى يوم الحصاد ، فتظهر النتيجة ، وتجنون الثمر » . ومغزى

هذه الأقوال الحكيمة لا تفتقر إلى إيضاح . ففى سبيله بين
الفلاحين ، حتى أصبح اسم المدارس الشعبية مقترناً بالريف ، وإلى يومنا
هذا لا توجد مدارس شعبية فى المدن ، أما طلبة هذه المدارس ، فتسعون
فى المئة منهم من سكان الريف . ومما يدل على أثر هذه المعاهد أنه يؤخذ
من الاحصاءات أن ٥٤ ٪ من مديرى جماعات التعاون الشهيرة ، التى
أفرغنا لها فصلاً خاصاً ، من طلبتها ، وكذلك ٢٣ ٪ من المدارس الزراعية ،
و ٢ ٪ من خريجي مدارس مستخرجات الألبان .

ولم يبذل زعماء المدارس الشعبية مجهوداً فى التدخل فى السياسة ،
ولكن لم تمض سنوات حتى أجمعت الأمة على انتخاب الكثيرين من
صغار الزارعين أعضاء للبرلمان . وكان هؤلاء اليد الطولى فى إطلاق الحرية
للقائمين بإدارة هذه المدارس . ومن الأقوال الماثورة التى فاه بها أحد
أعضاء مجلس النواب أمام هيئة المجلس فى إحدى جلساته هذه العبارة : « وما
الفائدة التى تعود على من إطعام دجاجى ، اذا كنتم تطالبوننى بأن أعقد
حبلاً حول رقابها ؟ » وكان ذلك بمناسبة محاولة الحكومة أن تشرف على
المدارس الشعبية

وظلّ محبوبو هذه المدارس من الزارعين والمعلمين وأساتذة الجامعة
ينشرونها ، حتى امتلأت بها القرى والأرياف . وقد رأى هؤلاء أن خلو
هذه المدارس من قواد الدراسة الصناعية ، يحرم الكثيرين من دخولها ،
فدخلت هذه المواد فى بعضها ، غير أنه اشترط فى معظم الذين يتلقونها
أن يكونوا من صنّاع الريف . وبين هؤلاء الأساتذة لدويج شريدر

(Ludvig Schreder) الذي تعزى اليه شهرة « اسكوف » وصيتها
الذائع . وقد كان في حياته العامة هادئاً متواضعاً ، يميل إلى العزلة والحياة ،
ولكنه كان إذا حضر طلبته يكشف القناع عن نفسه ، ويفتح لهم
سريره ، فينطلق كالسيل ، ولا يكاد ينصرف عنهم حتى يحتد الجدل بينهم ،
ويظلون كذلك حتى يدعو إلى عمل آخر . وقد كان ذلك المعلم العظيم
متعدد الميول ، متشعب المواهب ، فقد كان كاتباً ، ومحاضراً ، وإدارياً ،
وعضواً في البرلمان ، ومؤلفاً في موضوعات متغيرة . وكان كثير الكلام
عن « شعر النشاط ، وجمال العمل اليدوي » وكان يرمي بذلك إلى تشجيع
الفلاحين على العمل بأيديهم وعدم الاعتماد على الأيدي المأجورة . ومن
أقواله « فليحوا أراضيتكم بأيديكم . برهنوا للفعلة المستأجرين أن العمل نهاية
الشرف ، فيتضاعف مجهودهم ، ويحسون بشركة أخوية بينهم وبينكم . . . »
ولم تلبث « اسكوف » أن تنمو حولها القرى وتنشأ مدارس
للنسيج ، ومدارس لصناعة الألبان ، وغيرها ، كما كانت تنمو القرى في
القرون الوسطى حول أديرة الرهبان الشهيرة . وما لبثت « اسكوف »
أن أصبحت مركز الثقافة العامة ، يختلف إليها الزارعون ، رجالاً ونساءً
خصوصاً في فصل الخريف لسماع المحاضرات ، والاشتراك في المناقشات ،
والغناء ، والتعارف ، وإحياء حفلات السمر . وما لبثت أن أنشئت (سنة
١٨٨٧) جماعة الطلبة القدماء . ولا تزال نواحي النشاط هذه جميعها من
مميزات المدارس الشعبية . وامتدت حركة هذه المدارس من « اسكوف »
إلى نروج وأسود وفنلندا ، وكان مؤسسوها طلبة فيها ، أو ممن قضوا

زمنًا في زياراتها. وأول مدرسة شعبية أنشئت في ولايات أميركا المتحدة على مثال مدارس دانيمركة، أسسها كركبرج، وقد كان تلقى دروسه في « أوسكوف »

وقد أنشئ في « أوسكوف » على ممر الأيام أقسام لمعلمي المدارس الشعبية، ومواد الدراسة الحالية فيها أوسع نطاقًا وأكثر تقدمًا منها في سائر المدارس الشعبية، غير أنها تتفق جميعها في أنها لا تعدّ طلبتها إلى امتحان تمنحهم شهادة أو درجة عامية. ويتبين من الجدول الآتي المواد الدراسية التي يتلقاها عادة طلبة هذه المدارس في جميع أرياف دانيمركة: - (انظر الصفحة التالية)

جدول نظام الدراسة في مدارس دانيمركة الشعبية
ومدرستها ١٩ أسبوعاً للرجال و ١٢ أسبوعاً للنساء

عدد الساعات الزمنية في الاسبوع		المواد
للرجال	للنساء	
٧ر٣	٧ر٩	اللغة الدانيمركية
ر٣	ر٧	الخط
٢ر٩	٢ر٩	القراءة المسموعة ، وتاريخ أدب اللغة
١١ر٢	١٠ر٨	التاريخ والقانون وعلاقتهما بالأحوال الاجتماعية
١ر٩	١ر٩	الجغرافيا
٣ر٣	٣ر٥	العلوم الطبيعية والصحة
٤ر٠	٥ر٥	الحساب
ر٤	٢ر٥	الرسم
١ر٩	١ر٤	الغناء
٥ر٤	٤ر٨	الرياضة البدنية
٩ر٦	-	الخياطة ،
-	٣ر٢	الدروس الزراعية
١ر٥	٢ر٤	موضوعات أخرى
٤٩ر٧	٤٧ر٥	المجموع

هذا هو النظام المتبع الآن وتختلف المدارس بعض الاختلاف في هذا التوزيع ،
ففي إحدى المدارس مثلاً يخصص للغة الدانيمركية في كل المدة المقررة ٨١ ساعة في
حين أن مدرسة أخرى يخصص ٢٤٠ ساعة وتخصص مدرسة للتاريخ ٦٠ ساعة ،
في حين أن أخرى ترفع هذا العدد الى ٣٢٠ ساعة

الفصل السادس

(١)

المدارس الشعبية

أُتيح لى فى الفترة التى قضيتها فى دانيمركه منذ عامين أن أدرس عن قرب المدارس الثانوية الشعبية الشهيرة ، بفضل التسهيلات العظيمة التى أعدتها لى وزارة معارف تلك البلاد الراقية . وليس من السهولة بمكان أن أنقل الى إلهان صورة واضحة من تلك المعاهد فى فصل واحد ، إذ أنها متغلغلة فى حياة البلاد إلى حد لا يمكن تصويره . فالبلاد زراعية قبل كل شىء ، والفلاح هناك كل شىء ، والبرلمان بمجلسيه ، والتشريع ، والسلطة التنفيذية ، والجمعيات التعاونية ، والمدارس الشعبية ، كلها تتجه الى ناحية واحدة — أو تكاد — وهذه الناحية هى الزراعة . فإذا ما وصفنا المدارس الشعبية ، فإنما نصف الفلاح ، وعلى الأخص الزارع الصغير ، الذى يعيش من الأرض الزراعية وعليها . ولا يكاد يوجد فلاح واحد ، من الذكور أو الاناث ، لم يكن يوماً ما طالباً فى إحدى المدارس الشعبية أو الزراعية ، ولا يوجد رجل أو امرأة من غير طلاب هذه المدارس ، لا يكون له اتصال بها من ناحية من النواحي ، الثقافية منها أو الاجتماعية .

ومن هذا يتضح أنه من العيب أن يصور كاتب هذه المدارس الشعبية ، قبل أن يمهّد الطريق إلى القارىء بمقدمات طويلة عن شيء من تاريخ البلاد ، وحياتها الاقتصادية ، وشؤونها الاجتماعية ، وعلى الأخص جماعاتها التعاونية الشهيرة . ولما كان هذا مستحيلاً إذا استثنينا ما ذكرناه في الفصول السالفة . فقد رأينا أن نتحدث عن مدرسة واحدة من المدارس الشعبية العديدة التي زرناها ، ووقفنا على طرائقها وأنظمتها . وقد رأينا أن نجعل الحديث فضفاضاً مرسلًا ، لا يتقيد بنظام أو منطق ، حتى يمس أطرافاً شتى من الحياة في دانيمركة ، فيخرج القارىء منه ، بما يخرج المستمع إلى حديث صديق جالس أمامه على المائدة .

وقد اخترت مدرسة هيليرويد^(١) لأنها ترمس للقارىء صورة فريدة شاملة للمدارس الثانوية الشعبية في دانيمركة وعددها ستون ، ولأنها تمثل النظم في هذه المدارس جميعها خير تمثيل . وفيما خلا الأرقام ، فإن ما يقال عنها يقال عن كل مدرسة سواها .

وهيليرويد بلدة صغيرة تبعد بضعة كيلو مترات من كوبنهاجن العاصمة ، يقطعها القطار في خمسين دقيقة . ويبلغ عدد سكانها نحو ستة آلاف نسمة . ولكنك إذا اخترقت شوارعها بالسيارة ، خيل إليك أنها مدينة عامرة ، لما تشاهده فيها من المخازن التجارية الجميلة ، ووجعها الأنيقة ، ومعروضاتها وسلعها التي تسترعى الأنظار ، وشوارعها المرصوفة

(١) Hilleroid Folk School كما يكتبها الانجليز اما الدانيمركيون فيكتبونها

Hillerod Højskole

البالغة نهاية النظافة والتنسيق. بيد أن هذه الظاهرة لا تنفرد بها هليرويد وحدها، إذ هي صفة تكاد تقترن بكل بلدة في دانيمركة وشقيقتها أسوج ونروج، وهي بلدان إسكندناوه التي يشهد لها الجميع أنها أرقى بلدان العالم، وأعرقها حضارة، وأكثرها ديموقراطية، وأن سكانها «أبرد» بنى الإنسان دماً، وأكثرهم هدوءاً أو حباً للسلام، وأمتهم خلقاً، رغم انحدارهم من سلالة أولئك الشجعان المحاربين أبطال الشمال المعروفين باسم الفسجوت Visigoth الذين اجتاحتوا شمال أوروبا، ودوخوا أهلها، وتوغلوا في القارة جنوباً وشرقاً، حتى بلغوا شواطئ البحر الأسود.

ولست مدرسة هليرويد الشعبية في بلدة هليرويد ذاتها، ولكنها في مزرعة تبعد عنها مسافة تقطعها السيارة في نحو ربع ساعة. إذ أن المدارس الشعبية لا وجود لها في المدن على الإطلاق، وإنما تكون دوماً في الريف، وذلك لأن الغرض منها خدمة الريف وسكانه. وقد رسخت قدمها في خلال الثمانين سنة الماضية في حياة دانيمركة، رسوخاً تضاءلت أمامه جامعة كوبنهاجن ومدارسها العالية، فهذه تقتصر وظيفتها على خدمة أقلية ضئيلة من أبناء الأمة، في حين أن المدارس الشعبية تخدم الأغلبية الساحقة منها، وتنهض بالزراعة وهي قوام تلك الأمة.

ومن حسن المصادفات أن مدرسة هليرويد هذه، قد أطلق عليها اسم «مدرسة (Grundtvig) الشعبية»، نسبة إلى الزعيم الخالد الذكر الذي كان أول من فكّر في هذه المدارس، ووضع أسسها في منتصف القرن التاسع عشر. أقول «من حسن المصادفات» حتى أذكر للقارئ بما كتبناه

في الفصل السالف عن ذلك الرجل العظيم ، وما قلناه من أن كل فكرة سامية ، وكل مشروع جليل ، لا بدّ لنجاحه من فرد عبقرى ، يتقد غيرة ووطنية ، ثابت العقيدة بفكرته ، شديد الإيمان بمشروعه ، يجاهد في سبيل تحقيقه بأقصى ما في وسعه من جهد ، من غير أن يكون له من وراء ذلك مأرب ذاتى . ولعل أكثر المشروعات التي يدب فيها الفشل في بلادنا يعزى فشلها إلى ما نفتقر إليه من هذا النوع من الزعامة .

* * *

ابن الفلاح في دانيركة - أو بنته - يتم دراسته الأولية (أو الابتدائية إذا شئت) في الرابعة عشرة من عمره ، ولكنه لا يلتحق بالمدارس الثانوية العادية التي تؤدي في النهاية إلى الدراسات الجامعية ، أو المدارس الفنية أو المهنية العالية . ولكنه يشتغل بالزراعة ، إما مع والديه ، أو أحد أقاربه ، أو غير هؤلاء . ويبقى كذلك إلى سن الثامنة عشرة على الأقل . وفي هذه السن يلتحق بمدرسة ثانوية شعبية ، حيث يتلقى في فترة قصيرة ما يؤهله بحق أن يشترك في حياة قومه الزراعية ، ويتزوّد بالثقافة التي تجعله عضواً عاملاً في عشيرته ، والجماعة والبيئة التي يعيش فيهما . ومع أن السن التي يلتحق فيها الشاب أو الشابة بالمدرسة الشعبية هي الثامنة عشرة عادة ، إلا أن الكثيرين من الطلاب يؤجلون الالتحاق بهذه المدارس إلى سن تتراوح بين العشرين والخامسة والعشرين أو فوق ذلك . والغرض من هذه الفترة الطويلة بين نهاية التعليم الأولى والتعليم الثانوى الشعبى ، هو أن تتاح الفرصة للطلاب أن يتعرف على البيئة الزراعية ، وطرق

الزراعة العملية ، وأن تكتمل رجولته إن كان ذكراً ، وأنوثتها إن كانت أنثى .

إن المدارس الثانوية الشعبية ، يختلف بعضها عن بعض في نظمها ، وإن اتحدت في أغراضها وأسسها . والطالب لا يتخير مدرسة ويؤثرها على غيرها لموقعها الجغرافي أو لقربها من قريته أو مزرعته ، وإنما لاعتبارات سياسية ، أو اجتماعية ، أو دينية ، أو غير ذلك . فمدرسة هليرويد التي نصفها للقارىء يؤمها الطلاب من كل حذب وصوب - من جميع أنحاء دانيمركة ، فضلاً عن نروج وأسوج وفنلندا . وهنا يجدر بنا أن نقول كلمة عن أنواع هذه المدارس .

بين الستين مدرسة هذه توجد أربعون مدرسة تعنى بالمبادئ المسيحية أو القومية ، وعشر مدارس توجه عنايتها على الأخص إلى بث الروح الديني على مذهب البيوريتان (Puritans) ، وثلاث مدارس تهتم بالناحية البدنية فتكثر من الألعاب السويدية ، واثنان يتخصص الطلبة فيهما في فن التريض ، واثنان تتبعان مناهج تتفق ومبادئ الديمقراطية الاجتماعية ، ومدرسة واحدة تتبع مبادئ كارل ماركس الاشتراكية ، وأخرى تعنى بمذهب البابتست (Baptists) ، وأخرى دولية تعنى بنشر مبادئ السلام ، ودراسة الثقافات المقارنة ، وطلبتها من جميع ممالك العالم . وتوجد مدرستان لأبناء صغار الفلاحين . غير أن وجوه الاختلاف بين هذه المدارس الشعبية الستين محدودة . إذ أن جميعها تقوم بخدمة الفلاح عامة وفي ناحية من النواحي على الأخص .

وجميع هذه المدارس خصوصية أو أهلية كما نسميها في مصر ، أى أنها تابعة لأفراد يتكفلون بالإنفاق عليها وإدارة شئونها، وليس بها مدرسة واحدة للدولة أو للحكومة المحلية . إلا أن كلا من هذه المدارس تعينها الدولة أو الحكومة المحلية أو كاتهما مالياً كما سيتبين بعد . ولا دخل لنوع هذه المدارس في مبلغ الإعانة التي تتناولها من كل من السلطتين ، اذ أن السلطات لا تفرق بين نوع وآخر على الإطلاق .

لنعد الآن إلى مدرسة هليرويد فنقول إن أول ما يراه الزائر في البناء الرئيسى من الحديقة صورة رمزية مؤثرة . وأهل دانيمركة على رغم كونهم عمليين في مدارسهم وسائر شئونهم الاجتماعية والسياسية ، فأنهم مولعون بالصور الرمزية والشعر القومى والخيال الراقى . والصورة التي أتحدث عنها مثال مجسم لأغراض المدارس الشعبية ، الروحية منها والثقافية؛ ففي أسفلها تجد « الشر » في جسم إنسان تمدد على الأرض ، وكأنه أراد احتلالها، وإذا « بالعمل » ممثلاً بملك كريم، ينتشل الانسان ويرتفع بروحه إلى العلياء. إنقاذاً له من براثن الشر ومخالب الشيطان . وأينما أنعمت النظر في أرجاء المدرسة تجد صوراً فنية وتمائيل نصفية لعطاء التاريخ ، القديم منه والحديث ، وخصوصاً الشعراء والأنبياء . فهنا تمثال نصفي لجرتوج مؤسس المدارس الشعبية، وهناك صورة للوثر المصلح الدينى العظيم^(١)، وهناك صورة كبيرة

(١) مذهب الكنيسة الدانيمركية اللوثرية

تملاً الحائط ، تمثل إسحق في انتظار رفقة من روايات التوراة ، وهنا تمثل
بديع للمغنى الروحي الشهير كركجارت (Kirkegart) .
وقد لاحظت أن لبعض الغرف ألواناً خاصة تميز بعضها عن بعض ،
كغرف الصحف والمطالعة والمكتبة ، والغرفة الحمراء التي خصصت
للمناقشة والبحث ، وقد اختير لها هذا اللون لما يتمثل فيه من قوة الإلهام
والإبداع .

ويعجب القارىء إذا علم أن مدة الدراسة لا تتجاوز بضعة شهور ،
ويحار كيف أن بضعة شهور تكفى لإعداد النشء لتلك الحياة الراقية التي
يضرب بها المثل في شمال أوروبا . فالسنة الدراسية في هليرويد فصلان ،
فصل الشتاء ومدته خمسة شهور ويخصص للطلبة الذكور ، وفصل الصيف
ومدته ثلاثة شهور ويخصص للإناث . وسبب فصل الجنسين أولاً أن
الطلبة الذكور لا يستطيعون التغيب عن الحقول الزراعية في موسم الحصاد ،
وثانياً لأن بنايات المدارس الشعبية لا تتسع للجنسين في آن واحد ، إذ أن
جميع الطلبة والمعلمين والمعلمات « داخلية » يبيتون في المدرسة ويتناولون
طعامهم فيها ، سواء أكانوا متزوجين أم عزاباً ، ولا يوجد استثناء لذلك إلا
في الكلية الشعبية الدولية في «السنور» (Elsinore) ، فان بعض الطلبة
الأجانب يؤثرون السكن في بيوت الفلاحين المجاورة للكلية للوقوف على
نظام حياتهم الخاصة .

ويبلغ عدد غرف النوم خمسين ، تشرف نوافذ أكثرها على حديقة
المدرسة ومساحتها ٢٤ فدانا . وقد جلست طويلاً في حجر الدراسة استمع

للمعلمين والطالبات (اذ أن الزيارة كانت صيفاً)، وشهدت قاعة المحاضرات العامة التي يجتمع فيها جميع الطلبة يومياً، وزرت قاعة النسيج وقاعة الخياطة وشاهدت «الجمنازيوم» في حصص الألعاب الرياضية، فكنت في كل هذه أرى جواً غير ما عهدت في جميع البيئات المدرسية التي عرفت في مصر وأميركا وأوروبا. دخلت المكتبة فرأيت فيها معاماً سويدياً يلفت الطالبات الى الكتب والمؤلفات التي تلائم حاجتهن، وكان الهدوء شاملاً، والغيرة بادية على الوجوه، والولع الى المطالعة والبحث لا يخفى على أحد.

وتستعين المدرسة في كل فصل مدرسي بمعلم (أو معلمة) من نروج وآخر من أسوج، ليكون معاوناً للطلاب الوافدين من هاتين المملكتين. ولا يخفى أن بلدان اسكندنافيا الثلاثة تكاد تكون مملكة واحدة، اذ أن أهلها يتحدثون سلالة، ومع اختلاف لغاتهم، فإن التفاهم بينهم سهل ميسور، لتقارب اللغات بعضها من بعض. والمدارس الشعبية وإن تكن ديمقراطية الاصل، فإنها منتشرة في جميع هذه البلدان الثلاثة. غير أن بعض الطلاب يؤثرون الدراسة في غير بلادهم حتى يجمعوا بين الثقافة المدرسية، والاختبار، ولذة السفر. ولا يحتاج الانتقال من مملكة الى مملكة الى جواز سفر أو أي نوع من أنواع الرسميات، ولا يعاني المسافر شيئاً مما يعاني الراحلون من مصر الى فلسطين أو سوريا أو العكس، فالطريق مفتوح بغير قيد أو تحديد

ونظراً لقصر فترة الدراسة يخصص الطلبة والمعلمون والمعلمات ساعات

اليقظة من اليوم كله تقريباً للعمل ، أى من الساعة الثامنة صباحاً إلى منتصف العاشرة مساءً. وقد شاهدنا ناظر المدرسة وزوجه ومعلمى المدرسة ومعلماتها يعملون في حماسة وغيره أثناء الدرس واللعب وتناول الطعام ، وكأنهم لا يعرفون للهدنة أو الراحة أو الملل معنى . وأنى لهم ذلك ، والامة تتطلب منهم في هذه الفترة القصيرة أن يتركوا في أذهان أولئك الفتيات الناشئات أناراً لا تمحي ، ثقافية وأخلاقية وروحية ؟ وأنى لهم ذلك والامة تنتظر عودة أمهات المستقبل الى الريف مزودات بالمبادئ الحققة ، والخلق الكريم ، والمعلومات النافعة ، حتى يقمن بواجبهن المقدس نحو الوطن ، ويتأهب من يشاء منهن الى مواصلة الدرس ، سواء بالمراسلة أو بالالتحاق بمعاهد عليا أو بالدراسة الخاصة ؟

وقد راقى من هذه المدرسة ما رأيت فيها من العناية بالتربية البدنية ، والخياطة ، والنسيج ، والطهى ، فان الطالبة تخصص للأولى حصّة وللثانية أو الثالثة حصتين يومياً. وتقضى فترات تختلف باختلاف الحاجة في المطبخ ، بيد أن جل الوقت يقضى في الدرس والاستماع الى المحاضرات ، لا اعتقاد ذوى الشأن هناك ، أن الثقافة الصحيحة أساس النجاح في الحياة والاستعداد لمجابهة الصعاب ، وما عدا ذلك فان النشء يستطيع الوقوف عليه من تلقاء ذاته خارج المدرسة

وقد بلغ عدد طالبات هذه المدرسة مئة وخمسين فتاة ، منهن عشرون فقط من المدن والبقية من الريف . وتدفع الطالبة عن مدة الدراسة كلها (ثلاثة شهور) ٢٢٥ كرون أى عشرة جنيهات بالعملة المصرية ، وذلك

للتعليم والسكن والأكل . وقد يظهر لأول وهلة أن هذا المبلغ على ضآلته مرهق للفقراء من الطلاب ، غير أن الدولة تدفع للطالب الفقير أكثر من نصف هذا المبلغ - ١٢٠ كرون ، إعانة له ، وقد قال لي ناظر المدرسة أن هذه الإعانة لا تترك مجالاً للشك في أن كل شاب أو شابة في دانيمرك ، يستطيع أن يلتحق بمدرسة شعبية ثانوية بغير أن يشعر بضغط مالى أو إرهاق أياً كان .

وبعد أن شاهدت الحياة المدرسية وجوها ، ودرست أنظمتها ، وأشرفت من غرف النوم على الحديقة الواسعة التي تطل عليها ، وبعد أن رأيت إدارة المدرسة ومعلميها يسهرون على راحة الطالبات بهمة يصعب تصويرها ، أيقنت أن المبلغ الذى يدفعه الطلاب مقابل هذه المنافع الكثيرة ، إنما هو مبلغ اسمى في الواقع . وحسبنا أن نعلم أن الناظر والمعلمين وأفراد أسرهم ، يسكنون في المدرسة في غرف ملاصقة لغرف النوم التي يسكنها الطلاب ، وموائد الاكل يجلس إليها الناظر وزوجته والمعلمون والمعلمات وأزواجهن وأطفالهم جنباً إلى جنب الطالبات ، يأكل هؤلاء ما يأكل أولئك ، ويشترك الجميع في حديث واحد ، ويتسامرون ويتناقشون كأنهم كلهم أفراد أسرة واحدة . وأكثر من ذلك أن غرف الانتظار والمطالعة الخاصة في منازل الناظر والمعلمين والمعلمات ، كلها منسقة بنظام يخول للطالبات دخولها في أى وقت كان ، وقد رأيت أن وظيفة هذه الغرف أن يستقبل فيها الناظر والمعلمون الطالبات للأرشاد والنصح وتقديم يد المساعدة في كل حين

259/C/C

ومن أهم قاعات المدرسة الملعب (gymnasium) ، فهو مجهز بجميع أدوات الرياضة البدنية ، مغطاة أرضه بالخشب الصقيل اللامع ، ويتصل به عدد كاف من حمامات « الدوش » . وحتى هذا البناء لا يخلو من الصور الرمزية التي سبقت الإشارة إليها ، كما أننا لاحظنا في مدخله مسرحاً وأستاراً و « بيانو » . وقد قيل لنا أن هذا الملعب يتخذ قاعة للحفلات الموسيقية والتمثيلية لا للطلاب فحسب ، ولكن للفلاحين وسكان الريف المجاورة ، إذ أن المدرسة الثانوية الشعبية لا تدخر وسعاً إلا وتبذله في سبيل الثقافة العامة ، وإعداد الغذاء الذهني والروحي للجماعة التي تعيش فيها.

وفضلاً عن أن كل طالبة تقضى ساعة يومياً في الملعب لتأدية واجباتها البدنية والاستحمام بالماء الساخن والبارد في حماماته ، فإن بالمدرسة فصلاً خاصاً يتكوّن من ثلاثين فتاة يخصص لهنّ ١٤ حصّة للتربية البدنية اسبوعياً . والغرض من هذه الفرقة المخصوصة أن تقوم طالباتها بعد عودتهن الى الريف بتعليم نساءه الرياضة والألعاب السويدية ، وذلك بغير مقابل ، ومن تلقاء ذواتهن ، تلبية لرغبة وطنية . فدانيمركة تكاد تكون الوحيدة بين بلدان العالم التي انتشرت فيها جماعات الشباب الرياضية للرجال والنساء انتشاراً لا مثيل له بمحض ارادة الشعب ، لا بدافع من الحكومة ، أو بدعاية خاصة تحمل في طياتها أغراضاً سياسية أو حربية ، ولا تخلو قرية واحدة من جماعة رياضية للشبان يقوم بتدريب رجالها أحد طلبة المدارس الشعبية ، وجماعة رياضية للشابات تقوم بتدريب نساءها (من جميع الأعمار تقريباً) طالبة من المدارس الشعبية .

وقد بلغ عدد الأفراد الذين اشتركوا في هذه الجماعات اشتراكاً رسمياً في خلال الشتاء الماضي ١٣٠ ألفاً . ويرجع الفضل في هذه الفكرة الى السويد التي وضعت هذه الحركات الرياضية على أساس متين منذ مئة عام مضت . والفرق بين هذه الفرق الرياضية — في اسكندناوه وغيرها من البلدان ، أنها في الأخيرة جبرية ، موحى بها من وحدات أو أحزاب سياسية أو حكومية ، في حين أنها في الأولى ناشئة عن عقيدة حرّة سليمة ، ومحض اختيار لا غير .

وقد كانت أسوج قبيل مغادرتي لتلك البلاد تعدّعتها لاقامة مهرجان عظيم ، بمناسبة مرور مئة عام على وفاة الزعيم الرياضي لينج (Linge) ، مؤسس الألعاب السويدية المشهورة . وقد انتخبت دانيمركة ثلاثة آلاف فتاة من طالبات مدارسها الشعبية لتمثيلها في ذلك المهرجان ، وعرض نموذج من جهود الدانيمرك وما بلغتته فتياتها من المهارة في تلك الألعاب ، وما نتج عن ذلك من سلامة أبدانهن وقوتها ورشاقتهن .

ولا يسع الزائر إلا الإعجاب بهذا النظام الفريد الذي به تأخذ كل فتاة في البلاد نصيبها من التربية البدنية وافراً . وقفمت مع الناظر وزوجه طويلاً أشاهد فرقة بعد الأخرى ، يدخل أفرادها الملعب في أزياء اللعب الخاصة ، فيقفن بتلك الألعاب المدهشة على نغمات الموسيقى وقد تجلت فيهن الصحة بأكمل معانيها ، وتمثلت في حركاتهن القوة مع الرشاقة ، مما حدا بالناظر أن يقول لي مفاخراً « أن ما تراه هنا يمثل كل امرأة في الريف تقريباً بين العشرين والخمسين أن لم أقل أكثر من ذلك » . ومما يدعو للإعجاب أن المعامة

وقفت في المؤخرة تشرف على النظام من وراء الستار ، وتناوبت طالبات
نجيبات قيادة زميلاتهن في تأدية الالعاب . وقبل أن أغادر القاعة بقليل
حضرت زائرتان كريمتان من بلاد اسوج أحدهما زوجة مؤسس المدارس
الشعبية في بلادها ، والاخرى أكبر مغنية في أسوج .

وقد أثقلت على الناظر الأسئلة حتى صارحنى القول في نهاية زيارتي ،
أنه لا يذكر في حياته فترة وجه اليه فيها من الاسئلة ما وجهت اليه . غير
اننى رغم هذا التقرير الصريح لم أشأ أن أغادر المكان ، قبل أن أسأله عن
سرّ ما رأيته في الطالبات من الحماسة الشديدة والغيرة على العمل ، إلى
درجة يعجز القلم عن تصويرها ، والتفرغ للدرس وسائر الواجبات من
الصباح المبكر إلى ساعة النوم . لم أكد آتى على نهاية السؤال حتى قاطعنى
الناظر بقوله « المسألة في غاية من البساطة . السرّ فيما تراه من هذا النشاط
غير المألوف ، هو أنه لا توجد امتحانات ولا درجات ولا شهادات ، وليس
هناك هيئة تعترف بالذين يتمون دراستهم في هذه المدارس ، ولا ينال طالب
وظيفة أو عملاً بمجرد تخرجه منها ، كما انه لا يوجد عقاب أو ثواب ، فلا
جوائز ولا مكافآت ، ومعنى هذا ان الطالب يأتى من تلقاء ذاته ويدرس
بمحض اختياره ، ويتقدغيرة وحماسة في عمله لوازع داخلى ، لا لمؤثر خارجى
أياً كان .

ولما أن أراى الناظر عدداً من حجب النوم ، استطعت أن أقف على
حالة الطالبات الثقافية والاقتصادية ، أكثر مما رأيت في حجرات الدراسة .
وهذه الحجب البالغ عددها خمسين ، تخصص الواحدة لفتاتين أو ثلاث أو

أربع تبعاً لحجمها ، وقد تجلت في الصور الخاصة التي زينت الطالبات بها حجرهن ، والكتب والمجلات الملقاة على الموائد والرفوف ، والزهور التي جمعتها من حديقة المدرسة ، ورتبتها في أصص صغيرة جميلة في أنحاء الحجر - تجلت في كل هذه ميول الطالبات إلى الفنون الجميلة ، وعنايتهن بقواعد الذوق السليم ، وحبهن للكتب والمجلات الراقية التي تبحث في مشا كل العالم الحاضرة ، والنهوض بالفكر الانساني إلى أسمى مراتبه .

كما أن الملابس التي شاهدناها مصفوفة في الخزانات ، تدل ، رغم بساطتها ، على أن أولئك الفتيات لسن مماً نعهده في أمثالهن من الوضاعة وقصر الأيدي ، فهن في الغالب من بنات صغار الفلاحين ، ومن أفقر الطبقات في تلك البلاد ، ومع ذلك فقد عددنا الفساتين في غرفة معدة لطالبتين ، فإذا بها ٤٢ فستاناً معدة للاستعمال (ما خلا الملابس المعلقة خارج الخزانة) أي بحساب ٢١ فستاناً للطالبة الواحدة ، وإذا أردنا معرفة الفرق بين الحالة الاقتصادية في بيئة هذه الطبقة من الشعب الدانيمركي ، وما يقابلها في نظيرتها في مصر ، فما علينا إلا أن نتقل من حجر النوم هذه في مدرسة هليرويد الى منزل لأحد صغار الفلاحين التعساء الحظ في أرياف الدلتا أو وادي النيل .

ولما رجعت للاحصاءات الاقتصادية التي تبين معدل الدخل السنوي للبيئة التي تنتمي اليها أولئك الفتيات ، دهشت كثيراً ، لأن هذا المعدل لا يزيد عن خمسة جنيهات مصرية للفلاح الواحد . بيد أنني وجدت بعد البحث أن سبب هذا الرخاء النسبي في هذه الطبقة ، أن كلاً من الرجل

وزوجته وبعض بنيه وبناته (أو كلهم) فوق سن الرابعة عشرة، يعملون، ويكتسبون .

ومما يدل على ارتفاع مستوى العيش هناك فوق ما ينتظر، أن أثاث حجر النوم لا يقل عن مثله في المدارس العمومية (public schools) الراقية التي شاهدناها في إنجلترا - تلك المدارس التي يدفع الطالب فيها في العام مئات الجنيهات . إلا أن الأثاث في مدرسة هليرويد هذه يماثل الأثاث العادي في منازل تلك الطبقة من الفلاحين الذين يبعثون ببناتهم إلى هذه المدرسة . وقد زرنا عدداً ليس بقليل من تلك المنازل فشاقنا ما رأينا فيها من مستوى العيش الراقى .

وقد شاهدنا في إحدى حجر النوم طالبة متمددة على سريرها ، لأنها كانت منحرفة الصحة قليلاً فتخلقت عن تلقى الدروس ، وكان بيدها كتاب كبير الحجم ، فألقيت نظرة على عنوانه فإذا به « الديمقراطية والدكتاتورية » ، فلم أجد في هذا غرابة ، إذ أننى شاهدت في حلقات المناقشة والبحث ، وفي غرف الدراسة ، اتجاهاً خاصاً إلى درس جميع المسائل الاقتصادية والاخلاقية والسياسية والاجتماعية التي تشغل أذهان العالم في العصر الحاضر . وفيما عدا حلقات البحث وغرف الدراسة ، فإن المحاضرات التي تلقى على الطلاب يومياً ، تتناول هذه الموضوعات بغير انقطاع ، لأنها تتصل بحياتهم اليومية اتصالاً وثيقاً

وبمناسبة هذه المحاضرات نقول أن للمدارس الشعبية رأياً خاصاً فيها . يعتقد أولو الشأن أن لغة الكتب والمطالعة لغة صامتة ، تكاد تكون ميتة

في حين أن لغة المحاضرات لغة حية ، مسموعة ، تحمل بين كلماتها روح المحاضر وشخصيته ، وتحترق الأذان فتنفذ الى القلوب ، وتصيب مواقع الوجدان . وبناء على هذا الاعتقاد يخصص يومياً لقاعة المحاضرات الكبرى ساعتان ، ساعة صباحاً وأخرى مساء . ويؤم هذه المحاضرات جميع الطلبة في آن واحد ، وعلاوة على ذلك ، فإن الأعمال المدرسية تستهل يومياً باجتماع مدته لا تزيد عن ربع ساعة ، يحضره كذلك جميع الطلبة ، ويقتصر جدول العمل فيه على صلاة مختصرة تسبقها أناشيد دينية أو قومية .

ومن الأشياء التي استرعت نظري لوحة كبيرة ازدهت فيها الاعلانات والاوراق ازدحاما غطى كل سنتيمتر مربع فيها . ولولا جهلي باللغة الدانيمركية لكنت قرأت بعض هذه الاوراق المتراكمة ووفرت على الناظر مؤونة التعب . هذه الاوراق خطابات من جميع انحاء دانيمركة ، يرجو فيها أصحابها من ربات المنازل ، ناظر المدرسة ، أن يرشح لهن فتيات للعناية بأطفالهن ، ومساعدتهن في الخدمة المنزلية . وقيل لي إن ٨٠ طالبة كل عام يلبن نداء ربات المنازل ، وينتشرن في أطراف البلاد للقيام بهذا العمل بمرتب شهري قدره خمسون كرونا أى نحو ٢٥٠ غرشاً مصرياً في الشهر بخلاف الأكل والسكن . وبعد أن يتوافر للطلبة التي تقبل هذا العمل مبلغ يذكر ، تعود إلى بلدتها ، وتتخذ المبلغ نواة لعمل زراعي ، أو تضمه الى ما ادخره زوجها اذا ما تزوجت . ويتبين من هذا أن كلمة « خادمه » أو « مربية » لا تحمل الى الأذهان ما يشتم منه رائحة العار ، ولا يضير الفتاة المتعامة هناك ، أن تساعد ربات الديار في

أعمالهن ، كما لا يضيرها أن تكون مساعدة في متجر أو عاملة في مصنع أو أجيرة في مزرعة .

وليست هذه الظاهرة الغربية مقصورة على الدانمرك ، أو على طالبات المدارس الشعبية فيها ، وإنما هي تقليد جرت عليه الفتيات في بلدان الشمال وسويسرا . فكل فتاة من الطبقتين الوسطى والدنيا ، وبعض العليا ، (في اسوج وزوج ودانيمرك وهولندا واستونيا وفنلندا) تطمح ان ترحل الى خارج بلادها (خصوصاً الى انجلترا واثياناً الى المانيا وفرنسا واميركا) لتعمل كخادمة أو مربية أو وصيفة أو رفيقة لسيدة شريفة ، وغرضها من ذلك أولاً تعلم لغة أجنبية — خصوصاً الانجليزية — وثانياً السياحة والاختبار . فإذا لم يسعدها الحظ بالرحيل إلى الخارج ، قنعت بتأدية هذا العمل في وطنها ، ويكون غرضها من ذلك الاختبار ، ووضع نواة للحياة الاستقلالية الاقتصادية . ويساعد فتيات الشمال على هذه الفكرة ، الايمان بمبدأ عام على غاية من الاهمية ، ألا وهو شرف العمل . ونرى هذا المبدأ مجسماً في المانيا حيث لا يسمح لفتى أو فتاة دخول الجامعة ، قبل ان يقضى سنة في مصنع أو مزرعة ، مهما كانت منزلته الاجتماعية .

* * *

أما الكراسيات والمذكرات فتكاد تكون معدومة في المدارس الشعبية ؛ ولعلّ هذا نتيجة لازمة لاختفاء شبح الامتحانات والدرجات والشهادات ، والمبالغة في اطلاق الحرية للطلاب ، حتى لا تلهيهم كتابة المذكرات والعناية بالكراسيات ، عن التمتع بلذة الثقافة الحقة ، بالاستماع إلى المحاضرات ،

والاشتراك في حلقات البحث والمناقشة ، في جوّ حرّ طليق خالٍ من كل قيد وتحديد .

بيد أن لكل طالبة في مدرسة هليرويد كراسية واحدة كبيرة تشبه دفتر الحسابات عند التجار ، يبلغ طولها نحو ٤٠ سنتيمتراً ، وعرضها ٢٠ وسمكها ٥ سنتيمترات . وهذه الكراسية وحيدة من نوعها ، ومن أبداع ما رأيت في معاهد التعليم ، ولعل أقرب ما شاهدت من هذا القبيل الكراسيات التي يستعملها الطلبة في مدرسة دكرولى في بلجيكا ، وإن كانت كراسية هليرويد هذه أشد من كراسية دكرولى غرابة ، وأوسع منها نطاقاً . وقد كتب على غلاف هذه الكراسية بخط كبير واضح هاتان الكلمتان باللغة الدانيمركية Vi Kan ويقابلها في الانجليزية We Can أى « نقدر » ، وهو الشعار الذى يتخذه الطلبة رائداهم في الحياة داخل المدرسة وخارجها . وهذه الكراسية على ضخامتها لا تشمل كلاماً كثيراً ، ولا تحتوى على عبارات تفصيلية مسببة فى أى موضوع كان ، ومعظم ما يملأ صفحاتها صور ورسوم وخطوط بيانية ورموز ، وأكثر الصور مأخوذة من الصحف والمجلات التى يقرأها الطلبة والمعلمون . ويتعاون هؤلاء جميعهم على جمع هذه الصور وتوزيعها ولصقها ، فلا تنتهى فترة الدراسة حتى يكون لكل طالبة كراسيتها الخاصة ملاءى بالصور والرسوم والمعلومات الوجيهة التى تمسّ الموضوعات العامة

ومن هذه الموضوعات الحوادث الجارية ، السياسية منها والاجتماعية والفنون الجميلة - الرسم والنحت والتصوير والمعمار والتمثيل والموسيقى

والشعر والتاريخ . ومعظم هذه الموضوعات تتعلق بالعصر الحديث ، اللهم
إلا إذا أدى الحال الى العصور القديمة والمتوسطة . فهذه صورة لكارل
ماركس يتفرع منها سهام كتب تحتها (١) الاشتراكية و (٢) الشيوعية
وأمامها صورة لينين ، وقد قاطعتها صورة هتلر ، وكتبت عبارة يفهم منها
أن النازية مشتقة من الشيوعية ، رغم الزعم أنها تناهضها .

وهنا صورة موسوليني ومحور برلين روما ، وتحت ذلك صورة رمزية
لموت والخراب إشارة للحرب وعواقبها . وهناك رسم تاريخي تتخلله
سطور قليلة ، الغرض منها الوقوف على تاريخ الفنون الجميلة منذ عهد الفراعنة
وملوك بابل وعصر الإغريق والرومان دواليك إلى يومنا هذا . وهذه صور
عدة صغيرة ملصقة بعضها بجانب بعض ، وقد كتبت تحتها عبارة « المزارع
المقارنة » يظهر منها الفرق بين طرق الزراعة في دانيمركة والسويد ونروج
وألمانيا الخ ، وهذه صفحة موضحة بالرسم يتبين منها الفرق بين أنواع
المعمار في معابد قدماء المصريين والإغريق ، وكنائس الجوتيك ، والفن
الاسلامي المغربي ، وتلك صفحة عن الحياة السياسية في دانيمركة . وقد
ساعد على جمع هذا العدد الجمل من الصور ما أحضره ناظر المدرسة في أسفاره
العديدة منها ، وما تطوع بإهدائه الكنيرون من أصدقاء المدرسة

وفضلاً عن الشعر « نقدر » الذي سميت به هذه الكراسة العجيبة ،
فإن كل طالبة تحلى صدرها بدبوس معدني رسم عليه صليب وتيران ، وقد
أهداني الناظر دبوساً بتمنه

ومن الغريب أن المدارس الثانوية الشعبية في دانيمركة ليست للدولة، ولا للسلطة المحلية، ولا للجماعات، وإنما يقوم بإنشائها وأعبائها الافراد، وذلك لأن الفكرة نشأت في ذهن فرد من الافراد وهو الزعيم جرننوج، ومنه انتقلت إلى أفراد مثله من الغيورين المحبذين لمبادئ قومية أقيمت بذورها في تربة خصيبة منذ أكثر من سبعين عاما. بيد أن هؤلاء الافراد الذين أنشأوا المدارس الشعبية لا ينظر إليهم كما ينظر البعض في مصر الى أصحاب المدارس الحرة، أي أنهم مجرد تجار، رغم أن هؤلاء الافراد في تلك البلاد يعيشون من مدارسهم. وذلك لأن فكرة القومية والوطنية أو التعاون خير الناشئة، تسمو فوق كل اعتبار آخر. وقد أصبح من التقاليد الراسخة في الأذهان، أن مديري تلك المدارس وأصحابها، هم بمثابة نواب الامه الذين تطوعوا لخدمة الشباب وتهذيبه وإعداده، وقبلت الأمه ضمناً خدماتهم مشفوعة بالاعجاب والثقة العمياء

غير أن الدولة (والحكومة المحلية أحيانا) تعين هذه المدارس بطريقتين إحداهما مباشرة والأخرى غير مباشرة. فالطريقة المباشرة هي أن تدفع لصاحب المدرسة مبلغا سنويا معيناً كما تفعل وزارة المعارف المصرية إزاء المدارس الحرة. والطريقة غير المباشرة هي أن تمنح الطالب في خلال الفترة الدراسية مبلغاً شهرياً ليستعين به على دفع النفقات المدرسية إذا اتضح عدم مقدرة على الدفع. ولا يجد الطالب صعوبة في حمل الدولة على تقديم هذه الهبة المالية اليه، إذ يكفي أن يقدم ذووه أو ناظر المدرسة طلباً بذلك. وما هذه الظاهرة إلا مبدءاً من المبادئ الأخلاقية السامية

التي اشتهر بالتجلى بها سكان البلدان الاسكندنافية ، وما هي إلا مظهر من المظاهر العدة التي تتجلى فيها الثقة وحسن النية بين الحاكم والمحكوم ، وبين الهيئات والأفراد . ففي مدرسة هليرويد هذه تمنح الدولة صاحبها عشرة آلاف كرون في العام ، وتمنح الطالب أو الطالبة المعسرة ٤٠ كرون شهرياً أى أكثر قليلاً من نصف المصروفات المقررة

وناظر المدرسة حرّ في تعيين المدرسين والمدرسات وقبول الطلبة (الذكور) شتاءً وال طالبات صيفاً ، هو حر في قبول من يأنس فيه الكفاية من المعلمين وإن انعدمت مؤهلاته ، ورفض من لا يأنس فيه الصلاحية للعمل ، وإن تراكت لديه الدرجات والمؤهلات . وفي مقابل الاعانة المالية التي تمنحها الدولة للمدارس الشعبية والطلاب ، يشرف مفتشوها اشرافاً سطحياً جداً على هذه المدارس . ويكاد ينحصر هذا الاشراف في التأكد من أن المدرسة ظلت مفتوحة الأبواب كل العام ، وأن عدد طلبتها لم ينقص عن رقم معين . وما هذا الاشراف الأسمى الا نتيجة للثقة العالية في الأفراد الذين يضحون جهودهم خدمة لبلائهم .

وقد قال لي مستر كرستياتسن ناظر مدرسة هليرويد ، انه اشترى هذه المدرسة منذ خمس سنوات ، وفي هذه الفترة تخرج فيها ٩٠٠ طالب نصفهم من الذكور . وقد شاهدت خريطة كبيرة للبلدان الشمالية أثبتت فيها مئات من الدبابيس بياناً للقرى التي تمثل طلبة المدرسة منذ افتتاحها ، ليس في دانيمركه وحدها ، بل في أسوج وزوج أيضاً . وقد لاحظت أن رؤوس الدبابيس ، كرات حمراء أحياناً ، وزرقاء أخرى . وقد قيل لي إن الحمراء

تمثل الجنس اللطيف من الطلاب ، والزرقاء تمثل النشيط منهم . وإذا علمنا ان المدارس الشعبية في دانيمركة يؤمها ثلاثة آلاف من الشبان وثلاثة آلاف من الشابات سنويا ، جلهم من بنى الريف وبناته ، أدركنا القوة الهائلة — البدنية والعقلية والروحية — التى تنتشر فى قرى دانيمركة وأريافها وحقولها الزراعية ، فتكسبها ذلك السمو الذى اشتهرت به تلك المملكة الصغيرة .

ومن الأشياء التى ما كنت أتوقعها فى المدرسة خلوها من الدروس العملية ، إذا استثنينا الخياطة والنسيج والرياضة البدنية وأعمال المطبخ . وقد شرح لى الناظر ، (كما اتضح لى بعد ذلك من زيارات عدة مدارس أخرى شعبية) أن وظيفة المدارس الشعبية تكاد تكون ثقافية روحية محضة ، وذلك لأسباب أهمها (أولا) لأن فترة الدراسة لا تتسع للدراسة العملية (وثانياً) لأن الدراسة العملية يتلقاها الطالب فى المزرعة والمنزل فى فترة السنوات التى يقضيها منذ إتمام الدراسة الأولية (الابتدائية) إلى التحاقه بالمدرسة الشعبية ، وتتراوح هذه المدة عادة بين ٤ سنوات و ٩ سنوات ، (وثالثاً) لأن الطالب إذا وضع أمر تربيته على أساس متين من الثقافة والتحلى بمكارم الأخلاق ، يستطيع أن يكتف ذاته تكييفاً يمهده له سبلا النجاح فى البيئة التى يعيش فيها أياً كانت . وهذا المبدأ وإن خالف نظرية الانتقال (theory of transfer) فإنه يكاد يتفق مع شطر كبير من آراء المدارس فى انجلترا ، بما فى ذلك آراء جامعتى اكسفورد وكمبردج . ولعل وجه الخلاف بين هذا الرأى فى انجلترا والمدارس الشعبية

في دانيمركة ، أن الأولى شديدة العناية بالامتحانات والدرجات ، في حين أن الثانية تحتقر الامتحانات وتكره الدرجات كراهية جعلتها تمحوها من الوجود ، وذلك لأن فلسفة هذه المدارس تقول إن الحرية المطلقة في الدراسة ، الخالية خلواً تماماً من الامتحانات والشهادات والدرجات ، وما يتبعها من الهم والكمد وفقدان عزة النفس أحياناً — هذه الحرية هي مصدر القوة .

وأريد أن أترك في ذهن القارئ صورة جلية لما شاهدته من الحماس والنشاط ، في المعلمين والطلبة على السواء . وقد أعجبنى أن تتقدم الكفاية المؤهلات في تعيين المعلمين والمعلمات ، وأعجبنى أن يضحك الناظر والمعلمون عندما سألتهم عن عدد الساعات التي يدرسها المعلم في الأسبوع ، إذ أن الواحد منهم لا يفكر بتاتاً في عدد الساعات ، فلفروض أن كل وقته للمدرسة . وكثيراً ما يشترك الزوج والزوجة في هذه التضحية . ولا تجد مديراً لهذه المدارس بغير أن تكون لزوجته اليد الطولى في نجاح مدرسته . وقد شاهدت مدام كرستياتسن (زوجة مدير هايرويد) تلقي ثلاث محاضرات في اليوم ، وتعقد حلقات البحث ، وتفتح غرفة الاستقبال لمن يريد مقابلتها من الطالبات ، وتقوم بضبط الحسابات ، وتشرف على المطبخ وغرفة المائدة ، وتبذل جهودها في جعل التغذية على أساس علمي متين ، مع مراعاة الاقتصاد وتفاذي التبذير . فهي إذن معلمة ومشرفة وناصحة وربة بيت ، وهي دائمة الاتصال بالقائمين بالتدريس ، ومعظمهم من الرجال شتاءً ، و ٥٠٪ منهم من النساء صيفاً .

وليس هذا النوع من المدارس هو نهاية ما يستطيع الفتى أو الفتاة أن تبلغه من الثقافة ، فهناك مدارس تكميلية (Continuation Schools) ، اميرية وأهلية ، يؤمها الطلاب الذين يرغبون في الاستزادة . فمدرسة هليرويد هذه لا تسمح لطلاب بالبقاء فيها أكثر من فترة الدراسة المقررة ، إذ ليس هناك فشل أو نجاح . فإذا أراد الطالب البقاء عاماً آخر ، نصح له الناظر بالالتحاق بمدرسة شعبية تكميلية . وأهم هذه المدارس « اسكوف » نسبة إلى مدينة (ASCOV) التي تحمل هذا الاسم في شبه جزيرة جتلندا . ففي هذه المدرسة تستطيع الطالبة أن تبقى هناك ثلاث سنوات (اثناء الشتاء فقط ، إذ أنها تتبع نظاماً يماثل سائر المدارس الثانوية الشعبية صيفاً) ، والتعليم فيها مختلط بين الجنسين . ونظراً لكبر هذه المدرسة فإن الدولة تمدها بمبلغ ٥٠ ألف كرون في العام أي خمسة أمثال المبلغ الذي تدفعه لمدرسة هليرويد

ومدرسة « اسكوف » هذه يؤمها ٣٠٠ طالب وطالبة ، وفصل الشتاء فيها مدته ستة شهور ، وتبعد اسكوف عن العاصمة ، كوبنهاجن ، بمقدار ست ساعات بالقطار السريع

وقبل أن أختتم هذا الفصل أريد أن اذكر القارىء مرة أخرى أن مدرسة هليرويد كسائر المدارس الشعبية ، فضلاً عن وظيفتها كمدرسة ، مركز عام لثقافة السكان ، الذين يقطنون القرى والمزارع المجاورة . وقد سبق القول أن قاعة التريية البدنية « جنازيوم » تستخدم للحفلات . غير أن قاعة المائدة الفسيحة تستعمل أيضاً لهذا الغرض عند الحاجة ، وهي تتألف

من قاعتين ، تعلو الواحدة عن الأخرى ، ويفصل بينهما حاجز من الزجاج ، فتمت أقيمت فيها حفلة موسيقية أو محاضرة أو رواية تمثيلية فتح الحاجز الزجاجي ، واتخذ الجزء الأعلى مسرحاً .

وعلى ذكر قاعة المائدة أقول إنه بالرغم من انخفاض المصروفات المدرسية فإن عدد مرات الأكل خمس ، يقدم فيها الطعام على المنوال الآتي :

(١) الإفطار - « بورديج » باللبن ، قهوة ، خبز ، زبدة

(٢) الغذاء - حساء ، لحم ، خضار مشكل

(٣) الشاي في الساعة الخامسة - قهوة وفطير

(٤) العشاء - خضار أو لحم ، زبدة ، خبز ، جبنه ، شاي

(٥) قبيل النوم (الساعة العاشرة مساء) - عصير فواكه ساخن ،

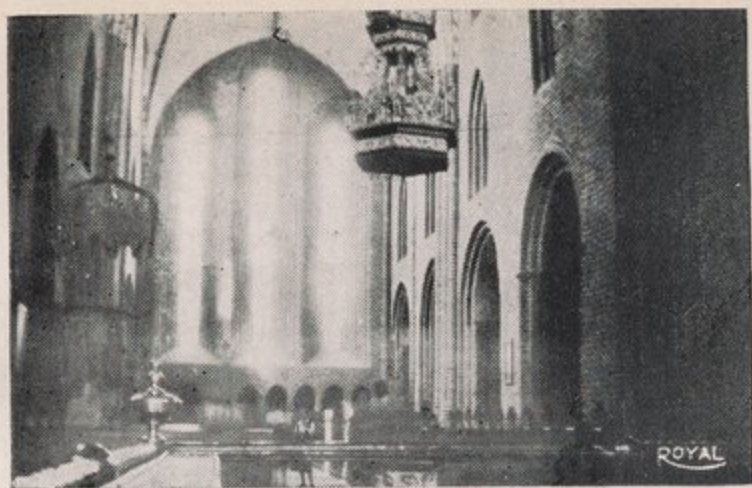
مع فطائر (كيك)

ويفهم مما تقدم أن الطلاب يعملون باستمرار بين الساعة الثامنة صباحاً والعاشرة مساءً .

وموجز القول أن في موسم الحصاد ، والحاصلات الزراعية دانية القطوف ، يهرع الذكور إلى الحقول ، وتلتحق الإناث بالمدارس الشعبية ، وبعد ثلاثة شهور يخرجن صحاح الأبدان ، مليئات الأجسام ، حمراء الوجوه . وفي فصل الشتاء يأخذ الطلبة الذكور مكانهن ، وبعد خمسة شهور يخرجون كذلك صحاح الأبدان والعقول والنفوس . ولا غرو فإن الألعاب السويدية والحمامات الساخنة والباردة ، والأغذية الصحية ، والعناية التي لا تفوقها عناية ، تخلق العجائب ، وإن قصرت الفترة التي يبقى فيها الشاب والشابة في المدرسة .



الرياضة البدنية في مدارس دانيمركة الشعبية
(هؤلاء الطلبة جميعهم من أبناء صغار الفلاحين)



درس في فن المعمار في مدرسة هليرويد الشعبية



مدرسة اوليروب الشعبية للتربية البدنية

الفصل السابع

الكلية الدولية الشعبية

في السنور ELSINORE

من المدارس الشعبية الشهيرة في دانمركة ، الكلية الدولية الشعبية في السنور ، وقد أنشئت بعد الحرب العالمية (١٩٢١) لنشر راية السلام العام ، الذي كان ضالة العالم في ذلك الحين . والفكرة مبنية على أن الدراسة المشتركة بين رجال ونساء من مختلف الأمم الاسكندنافية جميعها ، قد جمعت كلمتهم ، فأصبح التشاحن بينهم بعيد الوقوع . فاذا ما بثت هذه الفكرة في الخارج ، تضامنت الأمم جماعات ، خصوصاً ما تتحد منها موقعاً ، ولغة ، وثقافة ، وأمانى . وأقرب ما نشاهده تعزيزاً لهذه الفكرة ما ينادى به الكثيرون من وجوب تقريب البلدان العربية بعضها من بعض ، بتوحيد الثقافة العامة ، مع المحافظة على ما بد من الاحتفاظ به من التقاليد الخاصة ، التي تلائم كلاً من هذه البلدان على حدتها .

وقد أتيح لنا زيارة هذه الكلية ، والتحدث إلى مديرها ، وبعض أساتذتها ، وتناول الطعام مع طلبتها ، الذين يمثلون ٣١ أمة مختلفة ، والوقوف على نظمها ومناهجها . غير أنني أنصح لمن يرغب في الاطلاع على

مجرى الأحوال في مدارس دانمركة الشعبية ، في زيارة سريعة ، ألا يقصر
زيارته على هذه الكلية ، إذ أنها لا تمثل هذه المدارس بالمعنى الصحيح ،
ولأنها بمثابة كلية للمعالمين الذين يريدون قضاء شهوراً فيها للدراسة أولاً ،
ولزيارة المدارس الشعبية ، والمزارع الدانمركية ، في رحلات تعدّها هذه
الكلية لطلبتها ثانياً . ومن تسنح له الفرص بالالتحاق بهذه الكلية ، أمكنه
الاستفادة من نواح عدة غير الدراسة العلمية المحضة . ومن هذه النواحي
التعرف بالمشتغلين بالتربية من شتى الأمم ، والاتصال بهم عن قرب في
غرف الدراسة ، وقاعة المائدة ، والرحلات ، والأسفار . ومنها قضاء شطر
من العطلة الصيفية أو كلها في محيط راق ، وجوّ صحو بارد ، وريف شمالي
بديع ، والسكن في أكواخ الفلاحين الساذجة الجميلة ، وبأبخس الأثمان .
كما انني أنصح لمن ينشد عيشة البذخ والترف ، ألا يحاول أن يعيش في ذلك
الجوّ ، إذ أن الديمقراطية فيه تتمثل أحسن تمثيل ، والحياة إلى حياة
الفلاحين ، أقرب منها إلى عيشة أهل الحضر .

ولما فتحت هذه الكلية أبوابها منذ ١٨ عاماً التحق بها ٢٤ طالباً ،
منهم ٢ من الأميركيين ، و ٣ من الانجليز ، و ٥ من الألمان ، و ٣ من
النمساويين ، وواحد من كل من ايرلندا واسكوتلندا ، والبقية من دانمركة
وكان ٥ منهم من خريجي الجامعات ، و ٣ من الموظفين ، وعدد من
الفلاحين ، والبقية من شتى المهن ، وكان من أعسر المشاكل في بادئ
الأمر إيجاد التفاهم بين هذا المزيج الغريب ، ولكن إدارة الكلية لم تعدم

الحيلة ، فاتخذت العدة لحل المشكل بثلاث وسائل ، الغناء والموسيقى أولاً ،
والأعمال اليدوية ثانياً ، ودراسة اللغات ثالثاً .

أما الموسيقى والغناء فلغة دولية يفهمها الجميع على السواء ، إذ أن أوتار
الوجدان لا تعرف لغة ولا وطناً . وقد كان لألحان الطلبة الألمان ، وأغاني
طلبة الدانمرك الشعبية ، وأناشيد الطلبة الانجليز ، الفضل في خلق جو
الروح المشترك من العدم . وكان الألمان على الأخص يغنون ولا يعرفون
الملل ، وكان التوقيع على القيثارة والمندولين عزاء لنفوسهم ، كما كان الجمّام
للطلبة الانجليز راحة لأبدانهم .

كذلك الأعمال اليدوية ، فإنها كانت أفضل وسيلة للتعارف من
الموسيقى والإنشاد ، إذ أنها لا تحتاج من الكلام إلا القليل ، ولكنها
حجاب شفاف ، تبدو من خلاله شخصية صاحبه ، دقته ومثابرته ، قوته
وضعفه . ويصعب على المرء الذي يعبر عن مشاعره بيديه ، أن يخفي عن
أصدقائه حقيقة نفسه ، أو يلبس غير الثوب الذي وهبته الطبيعة إياه .
ولهذه الأعمال اليدوية فائدة أخرى ، وهي أنها هيأت الفرصة للفلاحين
والصناع من الطلبة ، فأظهروا المواهب التي يفوقون فيها زملاءهم من
ذوى العلوم والكتب ، وأرباب اليراعة والمداد والقرطاس ، وبهذا سوّت
بين كفتي الميزان . وهناك فائدة أخرى ، وهي أن الأعمال اليدوية جاءت
كمسكنٍ لأعصاب توترت ، خصوصاً فيما يتعلق بالطلبة الذين تأثرت بلادهم
من حرب طاحنة ، أو تهدمت أركانها من ثورة غشومة . وقد جاء تعليم

اللغة الانجليزية أمراً ليس من الصعوبة بمكان . ولم تنته السنة الدراسية حتى استطاع الجميع تتبع المحاضرات بهذه اللغة^(١)

ويتبين من هذا أن البداية كانت متواضعة إلى أقصى درجة من التواضع . فقد ساعد الطلبة صاحب المدرسة في تحويل اصطبل للخيل إلى غرفة دراسية وحجر النوم . ثم مرت الأيام سراعاً فاقامت ثلاث بنايات ، وابتيع عشرون فدانا من الارض حولها ، لتكون مسرحاً لنواحي النشاط ، حتى أصبحت الآن معدة لقبول ١٢٠ طالبا . وأساتذة الكلية كطلبتها من أمم مختلفة ، والداعمين كيون منهم يستطيعون إلقاء المحاضرات باللغات الرئيسية (الانجليزية والفرنسية والالمانية) . ومع أهمية اللغات في الكلية ، فإن تدريسها غير مقصور عليها ، وإنما يتناول الأدب والتاريخ والعلوم الاجتماعية

ويقول مدير هذه الكلية أن الصعوبة في تنظيم المحاضرات لا تنحصر في اللغة التي تلقى بها المحاضرة ، وتوزيع الطلبة بموجها ، وإنما تتعداها إلى أساليب التدريس . وإذا كانت اللغة حائلاً منيعاً بين جماعات الطلاب ، فإن المزاج أمتع . فالطالب الانجليزي مثلاً يتأثر بالطريقة التي يسمونها tutorial method ، وهي التي يكون فيها المعلم طالباً كسائر الطلبة في بحثه

(١) ويذكر مدير هذه الكلية حكاية طريفة وهو ان أحد الطلبة الانجليز في اثناء التمرين سقى الدجاج خمرأ (من شراب الروم) وكان يرمى بذلك الى تدفئتها ، وان طالباً من العمال استمع طويلاً لمحاضرة بالانجليزية (وكان لا يعرف منها الا النذر اليسير . وقد ادهشه أن المحاضر يتكلم عن لحم الخنزير المجفف الفرنسي (French bacon) في حين ان البككون انجليزي واخيراً علم ان المحاضر كان يتحدث عن الفيلسوف الانجليزي Francis Bacon

عن الحقيقة ، وكأنه يقول لهم أن الحقيقة كما هي ، أهم وأعظم من الحقيقة كما يفهمها هو ، ويدعوهم الى العمل بأمانة واخلاص ، بكل ماديهم من وسائل المعرفة ، توصلا لهذه الحقيقة . أما الطالب الاسكندنافي فيعبد الزعامة ، ولكنه في الوقت ذاته شديد الايمان بالديموقراطية . لذلك يريد المعلم أن يكون رجلا بين الرجال ولكنه من القوة ما يجعله خليقا بالزعامة في إلقاء محاضراته ، أي يحاضر اذا كان لديه ما هو جدير بالكلام ، لا أن يحاضر لأن عليه أن يقول شيئا والسلام . والطلبة الالمان يهونون السلطة ، يريدون المعلم أن يكون صورة للنظام والتنظيم ، وأن يترك في نفوسهم أثر هذه الصورة . فاذا نجح المعلم في ذلك تعاونوا معه عقلا ونفسا ، وكانوا من أشد طلبة العالم استفادة وعملا .

ولعل الفوارق التي تشاهدها في النشء من شتى الأمم مرآة تتجلى فيها طبائع تلك الأمم عامة . وقد أشرنا الطلاب الأُميين في جامعات أميركا ، وفرنسا ، وانجلترا ، وإيطاليا ، فكنا نرى في كل مجموعة منهم صورة من أخلاق الأمة التي تمثلها تلك المجموعة ، طالما كان عددها من القدر ما يجعلها ممثلة لأمتها تمثيلا حقيقيا . ويتوافر هذا الشرط في الجامعات الكبرى التي يبلغ عدد الطلبة الأجانب فيها من أمة واحدة المئات أحيانا . وقد أشرنا في كتابنا «الدنيا في أميركا» وفي عدة مقالات ، إلى النادي الأُمي في نيويورك ويبلغ عدد الشعوب الممثلة فيه ٧٥ أو أكثر أحيانا ، وقلنا إنه في مقدمة المنشآت العالمية التي يستطيع المرء فيه دراسة الفروق المزاجية والخلقية (والبيئية) بين السلالات والجنسيات .

ومما تستطيع قراءته في مسالك الطلبة الانجليز من الخلق الانجليزى،
أن الانجلو سكسون يعنون قبل كل شىء بالنتائج ، ولا يكفون أنفسهم
مؤونة البحث عن الخطط التى تؤدى إلى هذه النتائج ، وهذا على النقيض
من الالمان فانهم بوجه عام شديدو العقيدة بالمنطق ، وما المستقبل فى نظرهم
سوى نتيجة منطقية للمقدمات ، وللفكرة التى اتخذوها الخطوة الأولى فى
عناصر القضية . أما الانجليز فيؤثرون البحث فى الحالة الحاضرة كما هى ،
لاعتقادهم أن هناك عوامل خفية ، قد تؤثر فى النتيجة فتجعل المستقبل
مستقلاً عن المقدمات ، والفكرة التى اتخذوها خطواتهم الأولى فى سير
القضية ، وبعبارة أخرى ينشد الانجليز الحقيقة ، ويريدون الوقوف عليها ،
حتى يمكنهم ضبط العناصر التى تلابسها ، فى حين أن الالمان يبدأون بفكرة
معينة ، فيقتلون بها بحثاً . ثم يضعون الخطط التى تتطلبها بتصميم دقيق ، لما
اشتهروا به من الخلق فى التنظيم وإدارة الأمور ، وما جبلوا عليه من حب
النظام . وقد قيل عن الانجليز أنهم يؤثرون ألا يعبروا القنطرة قبل بلوغها
أما الأميركيون فلا يقلون شغفاً وعناية بالنتائج من أبناء عمهم
الانجليز ، وقد وهبوا من الكفايات والمزايا مايؤهلهم لبلوغ هذه النتائج .
بيد أنه يعوزهم أحياناً عنصر الصبر . وقد جبلوا على ذلك النوع من
الديمقراطية الذى لا يفرق بين طبقات الناس ، فقيرهم وغنيهم . ولهذا قد
امتازوا بطبيعتهم بمشاركة الغير مشاركة وجدانية ، وبالعطف ، وحسن النية
ويسهل على إدارة الجامعات الكبرى أن تنظم أوقات المحاضرات
فيها بكيفية تلائم الطلاب على اختلاف جنسياتهم وتباين أمزجتهم ، بعكس

الحال في كلية صغيرة مثل الكلية الأُمّية الشعبية في السنور . وذلك لأن الجامعات الكبرى كالفنادق الكبرى تقدم للنازلين فيها قائمة شاملة للطعام فيختارون منها ما تشتهى نفوسهم *à la carte* ، كما أن الكليات الصغيرة كالفنادق الصغيرة ، يقدم الطعام فيها مجموعة واحدة كما وضعها صاحب الفندق أو كما يسمونه *table d'hôte* . بيد أن هذه الصعوبة ميزة لا عيباً ، فالتباين في الامزجة بين مختلف الجامعات من الطلاب مصدر الوحي والإلهام ، للطلبة والأساتذة على السواء . فهناك في تلك البوتقة الملهبة تنصهر من كل أمة أقوى العناصر ، وتتفاعل ، وتتصادم ، ثم تتحد فتكون مزيجاً يفل أشد المعادن صلابة . هناك نجد ولاء الانجليز ، وحب الألمان للعمل ، وحياتهم الغنية بوجدانها ومواهبها الموسيقية ، وثبات الكنديين والهولنديين والسويسريين ، وصدق عزيزة الأميركان والنرويج ، ومزاج الصينيين ورحب صدورهم ، وكياسة الفرنسيين ، ومثابرة التشيكوسلوفاكيين (ويوجد عدد كبير منهم أكثرهم من فتيات الريف) ، والدقة في أداء الواجبات عند اليابانيين ، وخدمة الغير عند الدانمركيين ، والشهامة وروح الفروسية عند السويديين .

هذه صورة مصغرة لما ينشده منشئو هذه الكلية من التعاون الدولي بوساطتها ، ويجد القارئ من هذا الوصف المفصل أنها وليدة المدارس الثانوية الشعبية في الدانمرك ، إذ أنها تعني قبل كل شيء بتقوية الخلق ، وخدمة الغير ، وحب الانسانية : والتغلب على الفروق الأُمّية ؛ والإعجاب

بما في هذه الفروق من صفات ومزايا، والقضاء قضاء مبرماً على الامتحانات والشهادات ، وإزالة شبحها المخيف من الوجود .

وللطالب أن يختار المواد التي تلائم حالته الخاصة ، إلا أن هناك محاضرات يحتم على الجميع حضورها (ويستثنى من ذلك الأقسام الخاصة في العطلة الصيفية) . وتلى المحاضرات عادة المناقشات . وتعنى الكلية خاصة بالرسائل التي يطلب إلى الطلبة إعدادها من حين إلى حين ، وحلقات الدرس التي تكون شرطاً هاماً من الحياة المدرسية . ولدراسة اللغات الأجنبية أهمية خاصة ، ومن أغراض هذه الدراسة الاتصال بحياة الأمم الفكرية . ولا تقل عنها أهمية دراسة المسائل الالمانية ، من مناخ أو تربة ، وزراعة ، وصناعة ، وتطور اجتماعي ، وحياة فنية . وللرحلات والأحاديث والخطب في قاعة الطعام أثر كبير في نشاط الكلية . والطلبة لا يقلون اختلافاً في أعمارهم واستعدادهم العلمي عنهم في جنسياتهم . فتجد بينهم من حملة الدكتوراه ، والاستاذية ، كما تجد منهم من لا يحمل شهادة على الإطلاق ، غير شهادة الميلاد

ويوجد بالكلية ، حديقة مساحتها ١٥ فداناً ، وتبعد بضع دقائق من حمامات البحر في السنور ، التي يكثر طلبة الصيف من الاختلاف إليها ، كما أنه علاوة على الرحلات التي يقومون بها لدرس الحياة الريفية الراقية ، واكواخ الفلاحين الجميلة وجماعات التعاون ، والمزارع ، فانهم يستطيعون زيارة بلاد السويد من هناك في بضع دقائق ، إذ أن مدينة هلسنبرج Helsingburg (بالسويد) على مسافة ٢٠ دقيقة بالسفينة البخارية .

ومن أنظمة هذه الكلية أن يقضى الطالب ساعة كل يوم (ماعدا
الأحد) للعمل في المطبخ أو الحديقة، ويستثنى من ذلك طلبة العطلة الصيفية
وتكاد أبواب الكلية تكون مفتوحة طيلة العام. فموسم الشتاء عندهم
من ٣ نوفمبر إلى ١٠ أبريل، وموسم الصيف من ٢٠ أبريل إلى ١٥ يوليو،
غير أن الكلية تقبل الطلبة الذين لا يتسنى لهم الذهاب إليها منذ ذلك
التاريخ، إذا حضروا إليها من ١٥ يونيو أو حواليه. أما موسم العطلات كما
يسمونه، فتفتح فيه الكلية أبوابها للطلبة من ١٧ يولييه إلى ١٨ سبتمبر.
وبذا يتسنى للطلاب من جميع الأمم تلقى الدروس في أى من هذه الفترات
التي تلائم أوقاتهم.

ونظراً لأهمية موسم العطلات عند القراء، أضع أمامهم هذه
التفاصيل عن المصروفات وأوقات الدراسة، والمواد.

علاوة على تدريس اللغات، والعلاقات الدولية، وأدب اللغات،
والأحوال الاجتماعية والثقافية، ودراسة أحوال الفلاحين في دافركة،
والتشريع الاجتماعي، وجماعات التعاون، والمدارس الشعبية، فإن الكلية
تقدم دروساً في الاسبرنتو للمبتدئين والمتقدمين، لمن يشاء. أما المصروفات
فتلاثة وأربعون شلناً انجليزياً في الاسبوع (نحو ٢٠٦ غرشاً مصرياً)،
وذلك عن التعليم والسكن والطعام، يضاف إلى ذلك نحو جنيه في الاسبوع
للرحلات، وللطالب الحرية أن يكون سكنه في الكلية أو في منازل
الفلاحين على مقربة منها، غير أن الجميع يتناولون الطعام على مائدة الكلية.
وقد سبق القول أنه في غاية من البساطة ولكن صحتي وشهيتي، ويقدم

للطالب كل ما يريد فيما يتعلق بالكمية . وتتوزع ساعات النهار كالآتي :-
من ٨ صباحاً إلى ٢٠ : ١٢ طعام الافطار ، واجتماع عام ، ومحاضرات .
٢٠ : ١٢ مساء الغذاء . الساعة ٣ مساء تناول القهوة . من ٢٠ : ٣ مساء
إلى ٥٠ : ٦ محاضرات . الساعة ٧ تناول العشاء . وعند خلوّ اليوم من
الرحلات تشغل أوقات المساء في أحاديث علمية وخطب ومحاضرات
وحفلات رقص وسمر . والطلبة في هذا الموسم يزيد فيهم عدد السيدات
عن الرجال . ويتكلم عدد يذكر منهم الانجليزية ، ولكن بلهجة غير
سليمة ، رغم أن الكثيرين منهم يقومون بتدريسها في بلادهم . ولعل
السبب في ذلك يرجع إلى أن تحول التيار إلى الانجليزية كلغة إضافية ،
حديث . فقد كان أكثر اللغات الأجنبية انتشاراً في مدارس تلك البلاد
(شمال أوروبا وأواسطها) الألمانية ، وتليها الفرنسية . أما الآن ومنذ
عدة سنوات مضت ، يؤثرون الانجليزية .

ولا نريد أن نختم كلمتنا عن الكلية الشعبية الدولية قبل أن نشير مرة
أخرى إلى قلعة كرونبورج ، أو قصر همليت ، كما يسمونها . فهذا القصر
الأثري العظيم غني بالتحف التاريخية ، نخم البناء ، فريد الموقع ، يحف به
البحر من ناحية ، وتكتنفه الغابات والحدائق والنهيرات والقناطر من
نواح أخرى ، ونظراً لوقوعه على مقربة من الكلية فإنه مقصد الطلاب ،
يمرحون في ربوعه وما يحوطه من جنات تجرى من تحتها الأنهار . وهناك
تمثال لهملت ، وضريح يحج إليه محبو شكسبير وروايته المشهورة ، التي
بنيت وقائعها على حادث تاريخي دانيمركي . وإحياء لتلك الذكرى ، تفد

إلى السنور كل عام صيفاً فرقة تمثيلية شهيرة من إنجلترا ، لتمثيل رواية همليت في خلال الموسم في الملهى البديع في قلعة كرونبورج ، ويهرع الناس من جميع الأمم إلى إسكندناوة لحضورها . وقد دعانى أحد الأساتذة السويديين إلى حضور الرواية مساء ١٥ يولييه ١٩٣٩ ، فألفت الملهى على اتساعه مكتظاً بالجمهور ، بينهم عدد كبير من طلبة الكلية . ويظهر أن الذين يقومون بأدوار أبطال الرواية لهم منزلة كبرى عند أهل تلك البلدان ، وعلى الأخص « همليت » و « اوفيليا » فانك تجد صورهما في كل مكان ، ويتهافت الناس لشرائها .



الفصل الثامن

أثار المدارس الشعبية

وإذا نسيت الأمة أفضال المدارس الشعبية ، فهيئات لها أن تنسى ما هيأتها هذه المدارس للديمقراطية من سبل النجاح . ففيها يتلقى الطلبة بطريقة عملية ان الناس متساوون في كل ما تمتد اليه يد الجماعة ، بغض النظر عن مقدار الثروة التي يعيشون عليها ، وان أفراد الأمة لا يقاسون بحجم المزايا والكفايات والمواهب التي منحتهم الطبيعة إياها ، وانما باستثمار هذه المواهب والكفايات والمزايا ، وتطبيقها على مبادئ الحياة العامة . لقد سدت هذه المدارس الفجوات الواسعة الغور ، التي كانت تفرق بين طبقات الأمة الاجتماعية ، وكانت أساس الجماعات التعاونية التي تشاد على مبادئ الديمقراطية الحققة ، وفتحت للفلاح أبوابها على مصارعها ، ليغترف من بحر معارفها ، ما يؤهله لا لأن يكون عضواً عاملاً في هذه الجماعات وحسب ، وانما ليكون مديراً لها إذا ما طلب اليه ذلك . لقد كان شعار هذه المدارس منذ تأسيسها الحرية مع تحمل المسؤولية ، فانطلق طلبتها إلى ميادين الحياة مشبعين بهذا الشعار ، شديدي الوثوق بنواتهم ، متفانين في حب أوطانهم ، مسلحين بكل عادة ، يشقون بها طريقهم في حياة مكلفة بالأشواق .

* * *

أدرك القارىء من إشارات عدة ، أن هناك تضامناً بين البلدان الاسكندنافية ، وأن المدارس الشعبية قد انتقلت فكرتها من دانيمركة إلى نروج وأسوج وفنلندا وغيرها . وهنا يجمل أن نعلم شيئاً عن مدى انتشار هذه المدارس هناك ، وما أدخل عليها من التعديل الذى يلائم طبيعة كل من تلك البلاد . وأكبر ممالك اسكندناوة أسوج ، ويبلغ عدد مدارسها الشعبية ٦٠ تقريباً يؤمها ٦ آلاف طالب . بيد أن حظ مدارسها من إعانة الدولة أوفر بكثير من جارتها دانيمركة ، وإن كان إشراف الحكومة على المدارس الشعبية فى دانيمركة أقل منه فى أسوج ، إذ أن الإشراف فى الثانية ينحصر فى الاطلاع على حسابات المدرسة ، ولا يتناول التعليم أو النظام فى شيء . وهناك فرق آخر بين المدارس الشعبية فى البلدين . فمدارس السويد أكثر عناية بالعلوم (Science) ومواد الدراسة العملية ، من مدارس دانيمركة . وكانت أسوج — فى بادىء الأمر تعير دانيمركة بدعوى أن الطعام الذى يقدم لتلاميذها سهل الهضم فوق ما يلزم (إشارة لسهولة الدروس) ، وكانت دانيمركة من ناحيتها تعير أسوج بدعوى أن مدارسها ما هى إلا معاهد « لمسك الدفاتر » (إشارة إلى عنايتها بالأعمال الكتابية والاعتماد على الكتب فوق ما يلزم) . هذا باعتبار ما كان ، أما الآن فقد أصبح التفاهم بين البلدين من هذه الناحية يكاد تاماً ، وتبادل الآراء والمعلمين والطلبة مستمراً . وقد شاهدنا فى كل مدرسة شعبية زرتها فى دانيمركة طلبة من سائر ممالك اسكندناوه . وشاهدنا فى الكاية

الشعبية في السنور (Elsinore) التي سبق الكلام عنها ، عدداً كبيراً من طلبة أسوج ونروج وفنلندا (و ٢٥ أمة أجنبية) بينهم معلمون ومفتشو تعليم ، وأساتذة جامعات . ومن أشهر زعماء المدارس الشعبية في اسوج دكتور بسكو (Natanael Beskow) ، وقد أسس مدرسته الشهيرة (Birkogaarden) في استكهولم ، على مبادئ الانسانية والديمقراطية أما في كل من نروج وفنلندا ، فإن المدارس الشعبية تكاد تكون صورة طبق الأصل من مدارس دانيمركة ، فزعيم هذه المدارس في نروج « كريستوفور برون » (Christopher Brwun) قد جعل التاريخ والشعر أساساً للنهضة القومية ، أي انه اقتفى أثر جرنتوج . ويوجد في فنلندا ٥٣ مدرسة شعبية ، ٣٨ منها تدرس المواد فيها باللغة الفنلندية ، و ١٥ مدرسة تدرس المواد فيها باللغة السويدية . أما عدد الطلبة في مدارس نروج الشعبية فيزيد نسبياً عنه في مجموع الطلبة في أسوج وفنلندا معاً . وبذا تكون الثانية بعد دانيمركة في انتشار المدارس الشعبية

جميع هذه المدارس الشعبية التي وصفناها قومية ، أي أنها أنشئت خصيصاً لأهل البلد الذي أسست فيه ، وان كان بعض طلبتها من أمم اسكندناوة المجاورة . بيد أن هناك ثلاثة معاهد دولية ، يتألف معظم طلبتها من البلدان الاجنبية ، وأكثر هذه المعاهد اهمية الكلية الدولية في السنور ، (دانيمركة) ، وثانيها المدرسة الشعبية الاسكندناوية في جنيف (سويسرا) ، ويؤمها عادة طلبة من جميع أمم اسكندناوة . وتقصر الدراسة فيها على ثلاثة شهور في فصل الصيف ،

وتوجد عدة مدارس اسكندنافية مثلها في عدة مدن أوروبية ، وثالثتها المدرسة الشعبية الثانوية في فريدركسبرج (Frederiksborg) في دانيمركة ، وطلبتها عادة من أسوج ونروج وجزائر فارو واسلندا . وترى هذه المدرسة إلى إيقاف طلبتها على لغات هذه البلاد وثقافتها ، لما بينها من الصوالم المشتركة ، وأصل السلالة .

وفيما عدا بلدان الشمال ، نجد أثر جرننتوج في بريطانيا العظمى ، والمانيا وبولندا ، وسويسرا ، وهولندا ، وولايات أميركا المتحدة ، والشرق الاقصى ، فقد أدخل في هذه جميعها نظام المدارس الشعبية .

وعلاوة على المدارس الشعبية ، يوجد في دانيمركة ٢٠ مدرسة وكلية زراعية ، يؤمها ألفا طالب ونيّف . ومن الغريب أن المدرسة الزراعية هناك وليدة المدرسة الشعبية ، وقد أنشئت أولها سنة ١٨٦٧ ، ويؤمها عدد من الطلبة الذين يريدون الاستزادة من العلوم الزراعية بعد فراغهم من الدراسة في المدارس الشعبية . ومما يدل على مبلغ انتشار التعليم الزراعي بين المشتغلين بالزراعة أن ٢٠٪ من الفلاحين ، كانوا يوماً ما (عادة قبل زواجهم) طلبة في المدارس أو الكليات الزراعية ، وأن من ٣٠٪ إلى ٥٠٪ من جميع الزراع المالكين ، كباراً كانوا أو صغاراً ، تلقوا علومهم ، إما في المدارس الشعبية ، أو في المدارس والكليات الزراعية ، أو في كليهما . ومن الغريب أن دانيمركة استطاعت أن تربي فلاحيتها تربية زراعية بأخصر الوسائل ، وبأقصرها زمناً ، فإن معظم طلبة المدارس الشعبية والزراعية لم يكن

لهم حظ من التعليم فوق المدارس الابتدائية . وقد سبق القول أن الطالب هناك بعد نهاية الدراسة الابتدائية في سن الرابعة عشرة ، يقضى أربع سنوات في التمرين في مزرعة أو مصنع ، قبل أن يخوّل له الالتحاق بإحدى هذه المعاهد . ولا يستثنى من ذلك إلا نحو ٢٥ ٪ من طلبة المدارس الشعبية و ٣٨ ٪ من طلبة المدارس الزراعية

والدولة تعامل المدارس الزراعية معاملة المدارس الشعبية في إعاناتها المالية . وليست هذه الإعانة من البساطة في توزيعها كما في إعانة وزارة المعارف المصرية للمدارس الحرة ، التي تنحصر في إعانة الاستبقاء وإعانة التأسيس . فالحكومة الدانيمركية تتكفل بإعانة المدارس الشعبية والزراعية بمنحها سنوياً ٥٠ ٪ من مرتبات المعلمين والموظفين ، و ٢٠ ٪ من مرتبات الناظر ، و ١٠ ٪ من المصروفات المخصصة لصيانة البنايات المدرسية ، و ٣٥ ٪ من أثمان الأدوات والأثاث ، مضافاً إلى هذا ٥٠٠ كرون (الكرون ٤٤ ملياً) . وعلاوة على ذلك يمنح كل طالب من خزانة السلطة المحلية (مجلس المديرية) نحو ٤٥ ٪ من مجموع ما ينفقه شهرياً ، إذا كان فقيراً ، ونحو ٣٦ ٪ من الطلبة (بحسب الإحصاء الأخير) في المدارس الشعبية والمتوسطة يتمتعون بهذه المنحة ، وقد تبلغ هذه النسبة أحياناً ٥٠ ٪ من مجموع الطلبة

ولا يشترط في منح الإعانة سوى أن يمضى على المدرسة عَمان مفتوحة الأبواب باستمرار ، وأن يكون بها ١٢ طالباً على الأقل في العام ،

أو ١٨ طالباً لمدة ٨ شهور . وقد بلغ مجموع هذه الإعانات أخيراً نحو مليون ونصف مليون كرون^(١) في العام

وتوجد أنواع أخرى من المدارس التي تشبه المدارس الشعبية ، ولا تختلف عنها روحاً ومبدأً ، وقد توخى مؤسسوها النظام والخطّة والخلق التي كان ينادى بها جرتوج مؤسس المدارس الشعبية . وتنحصر هذه في (١) مدارس التدبير المنزلي لبنات الريف ، وقد كان عددها سنة ١٩٣٨ ، ١٩ مدرسة ، أمّها ١٦١٠ طالبة و (٢) مدارس « حرّة » وتدعى بهذا الاسم لأن مؤسسيها ، وإن كانوا من أتباع جرتوج ، إلا أنهم من والدي الطلبة الذين تضافر عدد منهم ، وأنشأ كل جماعة مدرسة تتفق وميولهم ومبادئهم الخاصة ، ويبلغ من يختلف إلى هذه المدارس ٢ / من مجموع سكان الأرياف في سنّ التلمذة ، و (٣) مدارس تكميلية (Continuation Schools) لمن يرغب من التلاميذ الاستزادة من الدراسة بعد نهاية التعليم الابتدائي وقبل الاشتغال بالزراعة ، ويوجد من هذه المدارس أربعون مدرسة يؤمها ألفا طالب . وجميع هذه الأنواع تعينها الحكومة مالياً أسوة بالمدارس الشعبية والزراعية

إلى هنا تحدثنا عن المدارس الثانوية الشعبية للفلاحين ، ومراكزها

(١) نحو ٦٦ ألف جنيه في العام منها نحو ثلثها يخصص معاشاً للمعلمين

صميم الريف . ولا بدّ أن القارىء الذى تتبع هذه الفصول ، لا يفتأ أن يتساءل عن نصيب العمال فى المدن ، من هذه المعاهد القومية العظيمة فى دانيمركة . والجواب أن المفكرين هناك لم يهملوا هذه الناحية من الإصلاح الاجتماعى ، فقد أنشأوا فى المدن الكبرى مدارس شعبية للعمال ، ولكنها تختلف فى مبادئها عن مدارس الريف ، التى وضع أسسها جونتوج . ويقع أكثر الاختلاف فى مواد الدراسة ، إذ أن مدارس العمال الشعبية تعنى بطبيعة الحال بالموضوعات التى تتصل اتصالاً مباشراً بالحياة الصناعية ، كمنقبات العمال ، ومشاكل العمل ، والجغرافيا الاقتصادية . ولكن مدارس العمال تتفق ومدارس الريف فى أن كلا منها « شعبى » من حيث علاقته بالدولة ، وأغراض التربية . وتتفق فى مسألة أخرى جوهرية ، وهى أنها لا تعد الطالب إلى امتحان ما ، ولا تطالبه بامتحان ما ، ولا تمنحه شهادة أو درجة ما ، إذ أن الهدف الذى ترمى اليه المدارس والطلبة على السواء يتجلى فى الشعار المشهور « كيف تتعلم لنعيش ، لا لنكسب العيش »

والأصل فى إنشاء هذه المدارس — فى المراكز الصناعية فى المدن ، حكاية تاريخية ، هى حكاية العمال ، بل حكاية الديمقراطية فى جميع البلدان . كانت دانمركة زراعية ليس إلا ، كما كانت إنجلترا قبل غزوة النورمان . وهى وإن كانت لا تزال زراعية قبل كل شئ ، فإنها تأثرت بالثورة الصناعية ، وأخذت بعد عام ١٨٥٧ تتحول مدنها الكبرى إلى مراكز صناعية ، وأخذت أجور العمال فى الارتفاع ، وطفق عددهم يزداد تدريجاً ، فاتسع

نفوذهم ، وفتحت عيونهم . غير أن الكنيسة في بادئ الأمر لم تعبأ بمدلول الحركة الجديدة ، ولم تظن حاجة العمال ، على رغم أن الذين نادوا بنصر الفلاح ، من أبناءها ، وعلى ورغم أن إنشاء المدارس الشعبية لسكان الريف لاقى عطفاً منها ، إلا في حالات قليلة . والحقيقة أن تلك المدارس لم تدعم إلا على أساس الإنسانية ، والإخاء ، وخدمة الغير ، وهي مبادئ الكنيسة . وفي ذلك الحين ظهرت مبادئ كارل ماركس ، والمادية الجرمانية ، فكانت المؤلفات فيها كتباً منزلة يقرأها العمال مطرقي الرؤوس ، ففعلت آياتها فعل البذور في الأرض الخصيبة ، وقال العمال لرجال الكنيسة في صراحة لا تفتقر إلى جرأة : « ما دمتم تأكلون على موائد الأغنياء ، وتعظون الفقراء ، فلکم دينکم ولنا ديننا » . وقام بعد ذلك مصلح من أحداث علماء اللاهوت ، فأنشأ لهم مدرسة ثانوية صغيرة في كوبنهاجن ، ولكنه لم يراع فيها حاجات العمال ، فاضطر إلى إغلاقها بعد قليل ، وقد وقف في وجهه أحد العمال قائلاً : « ان قطرة واحدة من بحر العلوم ، خير لنا من زجاجة كاملة مما تريد أن تقدمه لنا من ماء الحياة »

ومن أكبر زعماء المدارس الشعبية للعمال بورب (Borup) ، وقد كانت المدرسة التي أنشأها في كوبنهاجن في بادئ الأمر تختلف عما عليه المدارس الشعبية اليوم . فالمدارس الشعبية داخلية ، ويتلقى الطلبة فيها الدروس من الصباح إلى المساء ، ولم تكن تلك المدرسة كذلك . وقد أصبحت مدرسته على درجة عظيمة من الفخامة والنظام بعد أن اشترى لها بناياتها الحديثة في كوبنهاجن . ولا يزال بورب على قيد الحياة ، يلقى

المحاضرات على طلبتها ، وعمره ٨٧ سنة ، وقد عين ابنه مديراً لها .

ومما ساعد المدارس الشعبية على إنهاض الأمة ، رغبة أولى الشأن
الملحة في توفير وسائل المدنية للجميع . فالمدنية ، والخدمة الاجتماعية العامة ،
وتوفير كافة الوسائل لراحة السكان ، موزعة توزيعاً عادلاً في دانيمركة .
وحسبك أن تدرس بلدة أو مدينة أو قرية ، لتتجلى لك هذه الحقيقة
واضحة . وقد علم القاري ، مما ذكرناه بإسهاب عن الجماعات التعاونية ،
والمدارس الشعبية ، مبلغ انتشار جميع الوسائل التي تكفل للأهلين الراحة
والطمأنينة في حياتهم اليومية . ويجدر بنا هنا أن نثبت بعض الأرقام على
سبيل التمثيل ، للدلالة على مدى هذه الوسائل من ناحيتين ، ناحية التعليم ،
وناحية المنازل . أما الأولى ، فيوجد اليوم في دانيمركة ٤٠٠٠ مدرسة
ابتدائية عامة (لا يوجد كما في مصر نوعان من التعليم ، أولى وابتدائي)
يؤمها ٤٣٥ ألف تلميذ ، و ٥٦٥ مدرسة ابتدائية خصوصية ، ويؤمها ٤٢
الف تلميذ . والمدرسة العامة هي التي تنشأ الدولة أو المجالس البلدية أو
المحلية ، والمدارس الخاصة هي التي ينشئها الأفراد ، وتتناول من الحكومة
(العامة أو المحلية) إعانات مالية . وفي جميع هذه المدارس يتناول التلاميذ
طعام الغداء بغير مقابل ، ما لم يكن ذووهم من أهل اليسار . أما المدارس
الثانوية فيبلغ عددها ٣٦٠ ، بعضها خاص ، يؤمها ٧١ ألف طالب . والتعليم
في جميع هذه المدارس ، الابتدائية منها والثانوية بغير مصروفات ، فيما عدا
الطلبة الأغنياء فإنهم يدفعون أجوراً تكاد تكون اسمية . وما يقال عن

المدارس الابتدائية والثانوية يقال عن الجامعة ، فإن التعليم فيها مجانيّ إلا للطلبة ذوى اليسار . هذا ، ولا يدخل في هذا الإحصاء المدارس الشعبية ، والزراعية ، والفنية ، والتجارية ، والسكيات ، وقد بحثناها في غير هذا المكان هذا من جهة التعليم . أما من ناحية المنازل ، فإن أولى الأمر في دانيمرة (ونعني بهؤلاء المفكرين من الشعب ، لا الحكومة وحدها) قد فطنوا إلى هذه الناحية الاجتماعية ، فأعاروها جلّ عنايتهم ، إذ أن توفير المنازل الصحية للأهلين في مقابل مبالغ ضئيلة يتكفلون بدفعها مقسطة ، أساس الاستقرار في الأسرة ، ودعامة الصحة وراحة الضمير . ومن الأرقام التي تكاد تكون بعيدة التصديق عدد الجماعات التعاونية ، والبلديات ، والأفراد الذين تعينهم الحكومة ، والمؤسسات التي تأخذ على عواتقها بناء المنازل للفلاحين في القرى ، و « الشقق » في المدن . وحسبنا أن نعلم أنه بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٨ بلغ عدد هذه البنايات ١١٣ر٨١٤ منزلاً . ولا تختلف هذه المنازل بعضها عن بعض من حيث الاتساع ، ومن المنازل التي زرتها « فيلاً » قيل لنا أنها تمثل ألوفاً مثلها ، وتتألف من حجرتين ومطبخ في الطابق الأول ، وحجرتين وحمام في الطابق الثاني ، وحديقة مساحتها سدس فدان . ويكلف هذا المنزل بناية وأرضاً بالعملة المصرية ستمائة جنيه ، يدفع منها الساكن في بادئ الأمر ٢٤ جنيهًا ، ثم يدفع إيجاراً شهرياً قدره ٢٢٠ غرشاً ، فإذا أراد إخلاء المنزل ، فإن الشركة أو الجماعة ، ترد له المبلغ الذي دفعه (٢٤ جنيهًا) ، و ٧٥ ٪ من الأقساط الشهرية التي دفعها . ويرث الأولاد حقوق والديهم في المنزل بعد وفاته ،

كما ان للسالك الذى يريد إخلاء المنزل أن يرشح من محل محله. وله إذا أراد أن يؤجر غرفة أو غرفتين لا آخر ، إذا اقتضت حالته المالية ذلك .
ونضع هنا أمام القارئ صورة لمنشآت بلدة من بلدان دانيمركة حتى نكون فكرة عن حالتها الاجتماعية : -

ودانيمركة كأكثر البلدان التى بلغت من المدنية شأواً عظيماً ، تأخذ بمبدأ اللامركزية فى إدارة شئونها . فكل مدينة وبلدة (وقرية أحياناً) مجلسها البلدى أو المحلى ، وميزانياتها ، ومدارسها ، ومستشفياتها . ومنشآتها الاجتماعية . وقد رأينا إتماماً للفائدة أن نضع أمام القارئ نموذجاً لبلدة تمثل أية بلدة أخرى فى عدد سكانها . وقد اخترناها لأننا شاهدنا معالمها ومنشآتها ، وقليل لنا إنها لا تختلف كثيراً عن نظائرها ، وهذه هى بلدة السنور ، التى على مقربة منها توجد الكلية الأتمية التى خصصنا للكلام عنها فصلاً كاملاً . وسكان هذه البلدة ١٧٥٠٠ نسمة ، ويدير شئونها بلدياتها ، وتتوزع ميزانياتها السنوية بحسب إحصاء سنة ١٩٣٨ بالعملة المصرية كما يأتى : ^(١)

٨٠٠٠٠	جنيه للإدارة	٦٠٠٠٠	جنيه للبوليس
٤٠٠٠٠	جنيه للخدمة الاجتماعية	٥٠٠٠٠	جنيه للحدائق والمتنزهات
١٥٠٠٠	جنيه للمستشفيات	٦٠٠	جنيه للرياضة وحمامات البحر
٢٦٠٠٠	جنيه للمدارس والمكتبة العامة	٩٠٠٠	جنيه لصيانة المباني العامة
١٠٥٠٠	جنيه للمطافئ والصحة	١٠٠٠٠	جنيه مصروفات أخرى
١٨٠٠٠	جنيه للشوارع والطرق		
المجموع ١٣٩١٠٠ جنيه			

(١) هذه الأرقام تقريبية ، فقد حذفنا منها الكسور

وتشمل الخدمة الاجتماعية ، التأمين من المرض ، والعجز عن العمل ،
ومعاشات الطاعنين في السن ، وملاجئ العجزة (وتدفع للدولة $\frac{1}{7}$ من
مصروفات الآخرين و $\frac{1}{7}$ من مصروفات الأولين .

* * *

ومما ساعد حركة الإصلاح الاجتماعي على النجاح ، التشريع ، وسرعة
تنفيذه ، والرغبة في تنفيذه . مثال ذلك تشريع الأطفال :-

وضعت دانيمركة تشريعاً للأطفال سنة ١٨٧٣ ، وبموجبه لا يجوز
تشغيل الطفل قبل بلوغه سن العاشرة ، وقد رفعت هذه السن تدريجياً
حتى أصبح لا يسمح للطفل الاشتغال بعمل ما قبل سن الرابعة عشرة .
ولا يجوز الالتحاق بعمل ما بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، إلا إذا كان
الغرض من هذا العمل التمرين فقط . ويستثنى من ذلك الأعمال التي تتعلق
بمصايد الأسماك والزراعة وفلاحة البساتين . ويجوز تشغيل الأطفال بين
سن ١٢ و ١٤ كرُسُل - ساعة - بشرط ألا يتجاوز عملهم ٤ ساعات في
اليوم . ومن الغريب أن النساء وقفن عقبة في سبيل كل تشريع وضع
لفائدتهن ، بدعوى أنه مدعاة للتفريق بين الرجال والنساء . ولم يبق من
القوانين النافذة من هذا التشريع ، سوى إلزام المرأة بالبقاء في منزلها أربعة
أسابيع بعد الوضع . أما التأمين الاجتماعي من المرض ، ومعاشات العجزة
الخ ، فقد شرعت دانيمركة في التشريع الخاص بها منذ ٥٠ عاماً مضت

الفصل التاسع

الفنونه الجميلة والفنون " الحية "

الطبيعة في كثير من البلدان عنيفة صاخبة — سيلها جارف ، وبحرها عجاج ، أمواجها متلاطمة ، وأثوابها عاصفة . ولكنها ليست كذلك في دانيمركة . وكما أن الطبيعة فيها هادئة ، ساكنة ، فإن أهلها يميلون إلى الهدوء والدعة وحب السلام . وثقافتهم عامة ، والفنية خاصة ، كالطبيعة ، تتمثل فيها الهوادة ، واللفظ ، والبساطة . فالشعر والغناء^(١) والموسيقى

(١) من الأناشيد الوطنية الدائمة الصيت ، نقدم للقراء هذين البيتين ، وهما من قصيدتين مختلفتين ، للزعيم « جرننوج » وترجمها كاتب انجليزى عن الدانيمركية

Far whiter mountains shine splendidly forth
Than the hills of our native islands,
But we Danskers rejoice in the quiet North
For our lowlands and rolling highlands.
No towering peaks thundered over our birth :
It suits us best to remain on earth.

*
* *

Far more of those metals so white and so red
Find others by digging and selling.
We Danes though can point to everyday's bread
In even the lowliest dwelling —
Can boast that in riches our progress is such
That a few have too little, still fewer too much.

والنحت والتصوير والتمثيل ، تمتاز بالرشاقة ، ورقة الوجدان . ولا أثر فيها للقوة والعنف ، وجلّ أدبها في القصة ، والأحدوثة الخرافية ، والأراجيز الشعرية ، لا في المأساة الشاملة و « الدرام » العظيمة . هذه مرآة الدانيمركيين التي انعكس عليها خلقهم منذ بدء التاريخ ، فقد جبلوا بطبيعتهم على كراهية القوة الغشوم ، وحب الفضائل المتواضعة التي تمشي والشعوب الصغيرة ، كصفات الذكاء ، والشجاعة ، والمرونة ، والمثابرة . ولما كانت دانيمركة أمة صغيرة ، فإن كل فرد من أفرادها عزيز على الأمة ، وموضع عنايتها ، ولذا تجد الفن لا للخاصة ، بل للجميع . فلا عجب إذا جاء متواضعاً ، مرسلًا ، عذبًا ، منبثًا في كل مكان ، أو يكاد .

والكلام عن الفن في دانيمركة ، يجرّنا إلى حديث أراني مندفعاً إليه ، اندفاعاً يكاد يكون على رغم إرادتي . وذلك أن دانيمركة بأسرها ، وعاصمتها على الأخص ، قد عملت فيها يد الفن ، وامتدت إليها يد الجمال ، زخرفة وتزيينًا ، وتجميلًا وتنسيقًا ، فبدت بناياتها ، وشوارعها ، ومتنزهاتها ، ومنازلها ، ومنشآتها ، كأنها من مبتكرات الرسام ، والمصور ، والمثال ، ومن بنات أفكاره ، حتى إنك إذا نظرت إليها في مجموعها ، ألفيتها عروسًا تهادي ، ولكن في حشمة ورزاة ، وحسنة تحتال بين الخائل ، ولكن في وداعة وهدوء واستكانة . فإذا بحثت عن دور الفن فيها ، وسألت عن أشهر رجاله ، لم تجد بينهم رفايل ، أو ميكل انجلو ، أو لوناردو دى فنشى ، فما السبب ؟

لعلنا نجد الجواب في أكثر بلدان الشمال . فأقم أوروبا الجنوبية ،

كإيطاليا وفرنسا وإسبانيا ، تقدر الفن لذاته ، فتبالغ في إتقانه والإيفاق عليه ، إذ أنه في الأصل وقف على الملوك ، والأشراف ، ورجال الكنيسة ، في حين أن البلدان الشمالية والانجلوسكسونية ، تتخذ الفن وسيلة لغاية ، ولذا تجد متاحفها ودورها الفنية ، فقيرة في رجال الفن العالميين من أهلها ، ولكنك تجد آثار الفن والجمال في المنزل ، والحمام ، وقاعة المائدة ، وتجد في الأثاث والأزياء ، حتى بين أفقر الطبقات .

فإنجلترا وسكوتلندا مثلاً ، الأدب فيهما هو الفن ، كما أن الموسيقى في ألمانيا (بعد الجيل السادس عشر إلى اليوم) هي الفن . والشعراء الإنجليز من عصر « سبنسر » و « مرلو » و « شكسبير » إلى اليوم ، مرآة ينعكس فيها الفن الإنجليزى ، بما يتمثل فيه من قوة العبارة ، وجمال التعبير ، وسلامة الذوق ، ولكننا نجد بين رسامى الإنجليز ، ومثالهم ، ورجال المعمار^(١) فيهم ، « شكسبير » أو « ملتون » أو « شلى » ، ولا نجد فيهم أمثال « رفايل » ، و « تتشيان » و « جوتو » أو من يقرب منهم من الطليان ، أو « الجريكو » ، وجويا ، وفلاسكوز^(٢) أو من يقرب منهم من الاسبان .

وما يقال عن إنجلترا يقال عن شمال أميركا ، وهولندا ودانيمركة وسائر أمم اسكندناوه . فلم هذه الظاهرة ؟ وكيف تقود تلك البلدان العالم في المرافق المادية والعلمية ، وتتأخر عنها في الحياة الفنية ؟ يعزو ذلك رجال الفن إلى « البيوريتانزم » (Puritanism) ، وذلك أنه عندما هبت موجة

(١) إذا استثنينا سر كرسنوفر رن ، بانى كندرايمية سانت بول بلندن

الإصلاح على تلك البلدان ، حملت معها بذور التعصب لدين جديد ، فبالغ الناس في الحشمة والتقشف ، وعدم التسامح في التعبير عن الوجدان والتفكير ، كما يريد رجال الفن . فهذه بريطانيا مثلاً ، كانت غنية بالتحف الفنية التي لا تقدر بثمن ، بفضل ما ورثته من العصور الوسطى ، ولكن سرعان ما اجتاحتها عاصفة هوجاء ، عقب عصر الإصلاح ، فحطمت الوف الصور والتماثيل الفنية ، بدعوى أنها تقاليد خرافية . تغرى بالفساد ، وتثير الشهوات . وظل الحال كذلك ، لا يفرق سكان البلدان البروتستانت ، بين الجمال والحيوانية ، وبين الفن والشهوة ، إلى عهد قريب ، إن لم يكن إلى يومنا هذا . وما تأثرت به بريطانيا ، تأثرت به شمال أميركا ، وهولندا ، ودينمركة ، وأسوج ، ونروج ، وسائر الممالك الشمالية

يفرق بعض العلماء بين الفنون الجميلة (fine arts) والفنون الحية (lively arts) ، ويقصد بالثانية كل ما تسخره يد الإنسان ، من منشآت وعلوم ومخترعات ، لإسعاد الإنسان . ولعلنا قرأنا في هذا الكتاب الصغير بين السطور ، مثلاً صادقاً لما تستطيع أمة صغيرة متواضعة كالداينمرك ، أن تستخدمه من الفنون الحية ، فيتذوق أفرادها الطمأنينة ورغد العيش . ولعلنا رأينا في هذا الكتاب الصغير نموذجاً حياً ، لما تستطيع أمة صغيرة كالداينمرك ، أن تقدمه لأهلها من الفنون الجميلة ، فيتذوقون الجمال وراحة النفوس . ألم تقم الجماعات الزراعية والتعاونية ، والمنشآت الاجتماعية ، والمدارس الشعبية ، على خدمة الفلاح الصغير ، وإعانتته على

امتلاك قطعة من الأرض ، ومنزل متواضع ، والتمتع بالجمال في جميع مرافق الحياة ؟ تقتبس في الختام ما يحس به فلاح صغير أو عامل ، من السعادة وراحة الضمير ، وهو يعيش في البيئة التي وصفنا: ^(١) —

« ذلك الشعور بالملكية !!! ما أجمله من وجدان !!! وما أحلاها من عاطفة !!! وما أمتنه من أساس ، لعزة النفس وكرامتها ، أن يغمض الفقير عينيه ويفتحهما ، فإذا أمامه متاع ، ملك ، عقار ، في هذه الدنيا ، يستطيع أن يقول إنه لي !!! المال ، والأثاث ، والمنقولات ، والتحف - كلها متاع زائل ، لا يترك في النفوس ذلك الأثر الدائم ، وتلك الحساسية الغريبة ، التي يشعر بها من تدوس قدماه أرضاً . هي ملك له ... كنت قبل أن تصبح هذه الأرض ملكاً لي ، صفر الكف ، خائب الرجاء ، وكنت أظن أنه لم يعد لي في الحياة أمل بعد ، أتطلع إليه ، أو هدف أرمي إليه . وسرعان ما وضعت يدي على الأرض ، حتى أخذت أحرث وأزرع وأسقي ... بعرق جبينى زرعت ، وبعرق جبينى حصدت ... حصدت ماذا ؟ حنطة ؟ ليس ذلك وحسب ، بل سعادة ورجاء .

« والأصدقاء ؟ أجل ، كثر أصدقائي أيضاً ، فكما هبت الرياح على أشجارى ، وكما ترعرع زرعى ، أدركت أن معنى المدنية ، إذا كان للمدنية معنى ، أن تكون الملكية المادية وسيلة ، ينفذ بها الإنسان إلى نفس صديقه الإنسان ، وإن اختلف عنه سلالة ولونا ودينا ومزاجاً وعادة ...

« لقد ربحت أيضاً شيئاً آخر - التمتع بالحواس . ليست الحواس إلا أدوات ووسائل ، نسخر بها العالم الذى تعيش فيه . ولطالما أهملنا الحواس ، ففقدنا نصف السعادة فى الحياة الدنيا . . انظر إلى الآن ، وأنا أرى جمال الطبيعة حولى ، وأستمع إلى الماشية والطيور ، والرياح والأنهار ، وأشم عبير الأرض الطيبة^(١) ، والتربة المبللة ، ورائحة الأوراق والأزهار المتناثرة ، وعطر الأحرش فى الأودية والتلال . . . هذه حقاً عجائب الدنيا السبع . . . » وأخيراً ربحت شيئاً آخر - العمل اليدوى ، ما أجمل ذلك الإحساس الغريب ، الذى يشعر به المرء بعد كدّ يدوى ، وعمل بدنى ، لا تفكير فيه ، ولا إجهاد عقل ، ولا وجع رأس !!! ذلك العمل الذى يحسّ فيه الإنسان أنه آلة لا تفكر ، قوية العضلات ، ولكن لا عقل لها . . وذلك الجمال ، الذى تتفتح أمامه أحكام القلب ، كما تتفتح الورد لقطرات الندى هذه هي السعادة »



(٢) يذكر القارىء رواية الأرض الطيبة للمؤلفة الاميركية ذاتمة الصيت « بيرل بك » وقد وضعت فى صيغة سنائية منذ ثلاثة أعوام مضت

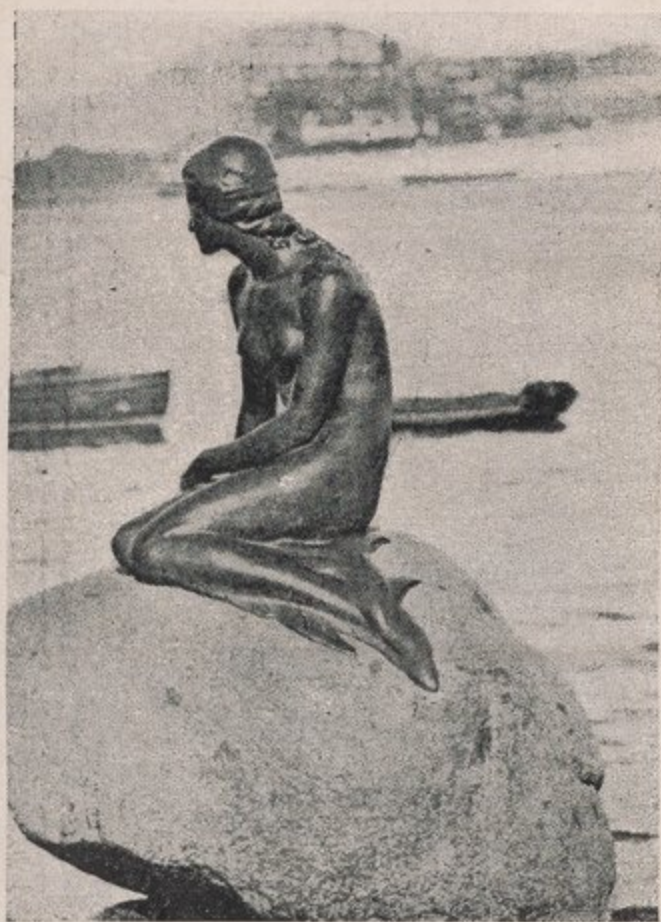
فهرس

صفحة	
٣	مقدمة الكتاب
٦٨	الفصل الأول - كلمة إجمالية
١٩١٤	الفصل الثاني - كوبنهاجن
١٩١٤ ٣٣١٠	الفصل الثالث - الفلاح والقرية
٤٥٤٣	الفصل الرابع - الجماعات التعاونية
١٦٥٨	الفصل الخامس - زعماء الاصلاح الاجتماعي
٢٥٧٤	الفصل السادس - المدارس الشعبية
٩٩	الفصل السابع - الكلية الدولية الشعبية في السنور
١٢١١٠	الفصل الثامن - آثار المدارس الشعبية
١٢٢	الفصل التاسع - الفنون الجميلة والفنون « الحية »

١٢١١٠



٤٧
١٥٥٤



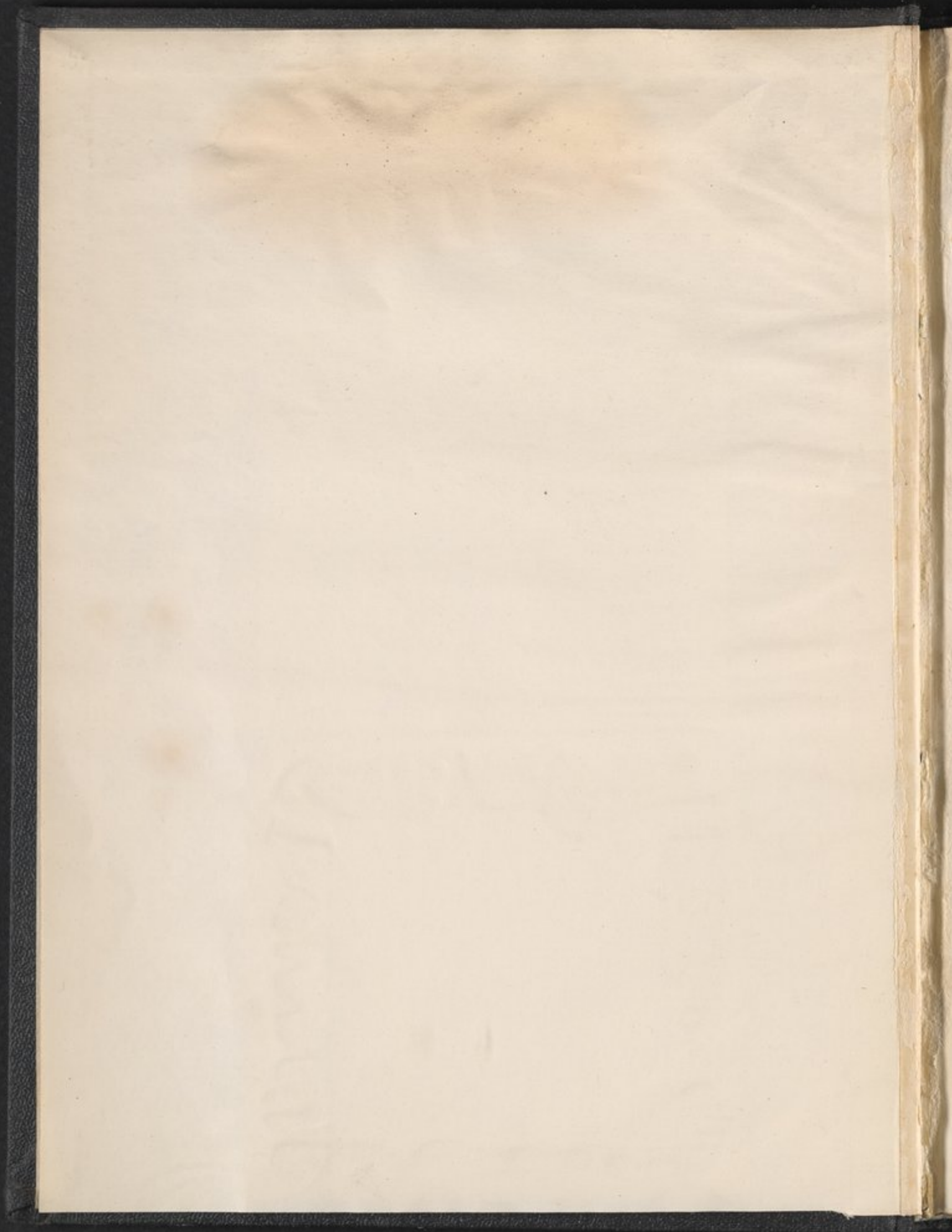
تمثال في مياه كوبنهاجن لحورية الماء الشهيرة من قصص
الكاتب الانجائزي المعروف هانز اندرسون ،
وقد ترجمت حديثاً إلى العربية

The Little Mermaid

تحتل الدائرة من جزيرة جبلند و الجزائر
المجاورة له وهي فيونيه و لاندوز و بلندة و بورت
و جزائر فارو و هي في يد غربي أوروبا وهي
تصلكم بهذا خطا يجزب السور
و ما حصل في ١٦٠٤ م و كان في ١٩٦٥ م
من أكثر بلاد أوروبا سكانا إذا خفف جيل البر
من نحو ٢٠٦

البلندة تكونه هن الجزيرة ملك مستقلة ذات
سيادة له حكومة و غير لما له خاصا سوا
ملك هو ملك الدائرة و ما حصل في ١٧٠٠ م
و كان في ١٧٠٠ م نفس ما حصل
في كافل

١٥ / ٤ / ١٩٦٥



DATE DUE

HN
543
B5x
1941

بقطره امير
الدانيمركية

HN
543
B5x
1941

JUN - 1976

B1268479K
J14140378



